عبد الجواد محمد عبد الجواد

هل يسقط الدين..
ويحيا العلم؟!

هذا الكتاب

هذا الكتاب دعوة إلى رحلة بحث وتأمل في الأديان والأسطورة والفلسفة والعلم .. علنا نبدل النظرة المتوارثة أو التقليدية أو الآلية بنظرة إبداعية يتجدد بها مفهومنا تجاه كثير من القضايا الدينية والاجتماعية والسياسية والعلمية .. فالإنسان دائماً عبر كل العصور ، وفى مختلف الثقافات التي عرفتها الشعوب يبحث في قلق وتخبط ، وأحياناً في وعى عن إجابات لأسئلة عويصة ... كيف نشأ الكون ؟ وكيف بدأت الحياة ؟ وهل الموت ينقل الإنسان إلى مجهول ؟ كما تساءل عن عبادات البشرية الأولى ، وعن كل ما يتعلق بالأصل والنهاية والطبيعة الحقيقية للعالم والكائنات التي تؤلفه . وراح يبحث في شعور أو لا شعور عن إجابات لتلك الأسئلة في الأديان والأساطير والفلسفة والعلم .. ولكنه بين تضارب العقائد الدينية المحرفة وسذاجة الأساطير وفكر الفلاسفة الخيالي أو الثلجي والعلم الظني .. وقف الإنسان عاجزاً عن استلهام عقيدته ، وقف عاجزاً عن تذكر تلك الذكرى الأولى التي عاشها عندما كان ذرات في جسد أبيه آدم وهو يتلقى التعاليم من ربه .

إن قيمة الإيمان تتجلى ليس بالتسليم للأشياء التي يمكن إدراكها ، ولكن بالتسليم الكامل للأشياء التي لا يمكن إدراكها .. طالما أن ما يمكن إدراكه يؤيده العقل والعلم وتميل إليه الفطرة وتطمئن إليه النفس ، ولذلك نجد القرآن يحدثنا تصريحاً عن القضايا التي ندركها والتي على قدر تصوراتنا العقلية ، ويحدثنا تلميحاً عن القضايا التي لا نستطيع إدراكها في ظل معطياتنا العلمية .. حتى إذا تطور العلم واتسعت معطياته و نما إدراكنا ، اكتشفنا أن التلميح تصريح ، والتصريح إعجاز ، والإعجاز لغز ، واللغز سر ، والسر نور ، والنور هداية وطريق إلى الله .

المؤلف ،،،،

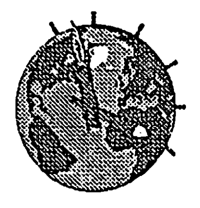
هل يسقط الدين ..
ويحيا العلم؟!



عبد الجواد محمد عبد الجواد

هل يسقط الدين .. ويحيا العلم؟!

نحو رؤية جديدة ..



هل يسقط الدين ويحيا العلم ؟!

• المؤلـــف :
• تصميم الغلاف : } عبد الجواد محمد عبد الجواد

• الإخراج الفني : محمد سعيد

 ت : ٤٤٤٣٧٠٠

خالص الشكر للأستاذ / حامد صالح لمشاركته فى نشر هذا الكتاب .

الطبعة الأولى

صفر ١٤١٩ هـ - يونيه ١٩٩٨م

الإهـــداء

إلى من تعزف ملامحهم لحن الإحتـــواء ..

على أوتار الإيمان والحب والصدق والعطاء.

إلى روح أمـــى ..

التى عزفت الإحتواء على أوتار الفطرة .

إلى زوجتــــــى ..

التى تعزف الإحتواء على أوتار القلــب .

إلى ابنى الوليد ..

الذى يعزف الإحتواء على أوتار الحياة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

" سورة النحل الآيات ١٢٥ : ١٢٨ "

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

" سورة هود – الآيتين ١١٨، ١١٩ "

مقدمة

فليسقط الدين ويحيا العلم.. رفعت أوروبا هذا الشعار بسبب ما شهدته في العصور الوسطى من تحجر العقل ، وشل التفكير، وجذب الروح ، وإبادة الكتب، ومحاربة العلم ، وحرق وقتل العلماء من قِبل المسئولين عن الدين النصراني

ولكن أي دين يسقط ، وأي علم يحيا.. هل يستوي الدين المُحَرَّف ورجاله الطغاة بالدين الصحيح ورجاله الصالحين ؟ هل يستوي العلم الظني بالعلم اليقيني ؟!

لم تطرح أوروبا هذين السؤالين للمناقشة والبحث بعد ثورتها على الدين النصراني ورجاله .. ومن ثم كرهت كل شيء يتصل بالدين النصراني بل تجاوزت ذلك إلى كراهية كل دين ، واتجهت مندفعة فقط نحو العلم جملة بيقينياته وظنياته ، ونتيجة لذلك ظهرت نظريات بلا دليل مادي، والتي تطلب تفنيدها بعد ذلك جهوداً عظيمة ومئات السنين ، والتي مازال بعضها حتى الآن يتأرجح بين مؤيدين ومعارضين .

ولأهمية هذه القضية فإن من أهداف هذا الكتاب عرض بعض العلوم الظنية التي تم بالفعل تفنيدها بالإضافة إلى عرض علوم ظنية مازالت قائمة حتى الآن محاولاً تفنيدها بواسطة أولاً : إعمال العقل والمنطق ، ثانياً: بأدوات ومفردات العلم نفسه ، ثالثاً : بعرض المنظور الديني من خلال المعطيات العلمية القرآنية التصريحية والتلميحية بمفهوم ديني عقلي علمي .

وسوف نرى بالرغم من أن تلك النظريات الظنية كانت بلا دليل علمي مادي إلا أن أوروبا وأمريكا أقامتا عليها نظم حياتهم المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وأرادتا بها القضاء على الميتافيزيقا والأديان، وراحوا يرددون حكمة الشيطان : " دعه يعمل ويمر بلا حواجز". وما الحواجز في اعتقادهم سوى الأخلاق والفضائل والأديان، وظهرت المشاريع والنظريات والفلسفات الوضعية كالمشروع الشيوعي والرأسمالي ، والفلسفة البرجماتية العملية الأمريكية التي يتلخص منهجها في مقولتها الشهيرة " إن الحق لذاته والباطل لذاته حديث خرافة " ولعل ذلك يفسر السياسة الأمريكية المبنية على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة ، والوسيلة كونها دنيئة وغير أخلاقية ، فهذا لا يؤلم الضمير السياسي لديها

إن هذا الكتاب ليس كتاباً في السياسة ولكن المقام يتسع أحياناً لعرض بعض وجهات النظر والآراء السياسية وخصوصاً المتعلقة بالمفهوم الأخلاقي والتي تخدم أهداف الكتاب دون شطط أو بُعد عن الاتجاه الأساسي .

وسوف نجد أن العلم مثلما أثر في التوجهات السياسية ، أثر كذلك في التوجهات العقائدية ، وأقام ثورة ضد الأديان .. أعلنت في بدايتها بأن المادة هي أكبر حقيقة في هذا الكون وأنه لا ضرورة للاعتراف بوجود غير مادي كالله . ولكن هذه الثورة انتهت بالصلح بين الدين والعلم .

ولكن الصلح بين الدين والعلم لم يتم بين جميع القضايا الدينية والقضايا العلمية فالمقصود بهذا الصلح هو فقط اتفاق العلم مع الدين بأن حقيقة الكون حادث غير مادي وكأن العلم أصبح يؤمن بالميتافيزيقا حتى هذا الصلح يرى كثير من العلماء أنه مشكوك فيه .

وسوف نجد أن المعطيات العلمية اليقينية عندما تم مقارنتها بالمعطيات الكونية الدينية كشفت حقيقة تحريف التوراة والإنجيل لعدم مطابقتهما للعلم اليقيني، بينما كشفت حفظ القرآن من أي تحريف بسبب اتفاق الكونيات القرآنية معها وبالأحرى لتطابقها مع الآيات الكونية القرآنية ، في حين أن العلم الظني عبر العصور أتاح الفرصة للهجوم ضد الأديان بشكل عام وضد الإسلام بشكل خاص وبالتالي هيأ سبلاً للإلحاد بسبب تعارض العلم الكوني الظني مع بعض الآيات القرآنية الكونية ، ذاك العلم الذي كان يُعتقد في صحته ، وأثبت العلم اليقيني بوسائله المتطورة عدم صحته .

وإذا كنا نتكلم عن مقارنة المعطيات الكونية العلمية بالمعطيات الكونية في القرآن يجب علينا أن نضع في الاعتبار أن الإعجاز العلمي هو إخبار القرآن أو السُنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ.

وبالرغم من أن واضعي هذا التعريف للإعجاز العلمي هم العلماء أنفسهم إلا إننا نجد أنه قد يكون من الصعب على بعضهم تحديد الحقيقة العلمية الذي ثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ .

فعلى سبيل المثال نجد أن بعض علماء المسلمين يقررون أن القرآن هو أول من أشار إلى حقيقة أن القمر يستمد نوره من الشمس ولكن في الواقع إن أفلاطون " ٤٣٧ – ٣٤٧ ق م " قد سبق القرآن في ذلك عندما أدرك هذه الحقيقة .. بل سبقه إلى ذلك الفيلسوف " أنا كسيمنس ٥٨٨– ٥٢٤ ق.م" وهذا لا يسيء إلى القرآن لأن ذلك من الأمور المنطقية ، بالإضافة إلى أن القرآن حافل بكثير من المعطيات الكونية التي لا توجد إلا في القرآن،

والقرآن فقط .

ولهذا فإن لزاما على كل من يعنيهم الأمر تجديد بينة الرسالة الإسلامية في عصر الكشوف العلمية ، والعقلية العلمية المادية أيضاً لعل ذلك يسهم في إثارة ثائرة المسلمين تجاه الاكتشافات العلمية الكونية ، ومحاولة بعث الحضارة الإسلامية بدافع من الحوافز الإيمانية ، وبمقومات عصرية ، وبالتالي قد نقود ثورة تصحيح مسار العلم التجريبي في العالم أجمع ، ونحقق لشعوب العالم العدل والرفاهية العادلة. ومن هذا المنطلق فقد تم تخصيص مساحة في هذا الكتاب لعرض قضية تم تجاهلها كثيراً أو لم يتناولها أحد من قبل بشكل جوهري .. ألا وهي قضية السبع سماوات والسبع أرضين .. فما حقيقة السبع سماوات والسبع أرضين ؟ وما المفهوم الجديد الذي يجب أن نتبناه لكلمة سماء وكلمة أرض ؟ وكيف تم بناء الكون من منظور قرآني علمي ؟

ظل الإنسان دائماً في كل الأزمنة وفي مختلف الثقافات التي عرفتها الشعوب يبحث-في قلق وتخبط،وأحياناً في وعي-عن إجابات لأسئلة عويصة عن كيفية نشأة الكون وبدء الحياة ؟! وعن ماهية فلسفة الحياة عامة وحياته خاصةً ؟ فلمَ الحياة طالما أنها بداية رحلة الموت ؟ وإذا كانت نشأة الحياة مجهولة ، فهل الموت يسير بنا إلى مجهول !؟

وتساءل أيضا عن عبادات البشرية الأولى ، وعن كل ما يتعلق بالأصل والنهاية والطبيعة الحقيقية للعالم والكائنات التي تؤلفه ....وكأن فطرته تدفعه دفعاً لاستلهام عقيدته ، وتحثه للتوجه إلى خالق الكون المبدئ المعيد . وراح يبحث في شعور أو لا شعور عن إجابات لتلك الأسئلة في الأديان والأساطير والفلسفة والعلم .

ولكن الأديان حُرِّف ما حُرِّف فيها وتحولت إلى معتقدات باطلة ، انشقت منها أساطير وخرافات .. وحاول الفلاسفة رسم فلسفة كونية وحياتية، ولكنها كانت تحاكي الأساطير أو تشبه قطعة ثلج بلورية براقة وضعت في جو حار ، فلم تشبع احتياجات البشر ، ولم ترتح إليها فطرتهم . وبين تضارب العقائد الدينية المحرفة ، وسذاجة الأساطير وفكر الفلاسفة الخيالي أو الثلجي والعلم الظني ، وقف الإنسان عاجزاً عن استلهام عقيدته.. وقف عاجزاً عن تذكر تلك الذكرى الأولى التي عاشها عندما كان ذرات في جسد أبيه آدم وهو يتلقى التعاليم من ربه . ولذلك نزل القرآن كتاباً محكما ما فرط الله فيه من شيء ، ولأنه آخر الكتب السماوية فكان لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها فقد أشار إلى أصول المعارف العلمية والفلسفية ، وتكلم عن نظم الأخلاق وعلم الاجتماع، وتكلم عن الماضي والحاضر وتنبأ عما يحدث في المستقبل . فالإسلام دين فطرى جامع ، يؤلف بين الوجدان والعقل والحس ، وبين الجسد والروح .

إن العلم عبر العصور السابقة أغرق الإنسان في مادياته وشتته بظنياته والإنسان في بدايته عندما كان يتميز بالوعي الكوني الفطري كان يعترف بأن الكون حادث غير مادي ، وكان يؤمن بوجود الله ثم عندما تطور إلى مرحلة الوعي الكوني التمهيدي للمادية– التي اشتهرت بالتخبط والشطط– أعتقد بأن الكون ابن الصدفة والطبيعة ، وأن المادة هي أكبر حقيقة في هذا الكون ، وبالتالي لا ضرورة بالاعتراف بوجود غير مادي كالله .

وأخيراً عندما اكتمل بداخله الوعي الكوني الجديد ، وأصبح يعيش في عصر تصحيح العلم عاد مرة أخرى يعترف بالميتافيزيقا ويؤمن بوجود الله .

عبد الجواد محمد عبد الجواد

(إن نحن إلا أطفال صغار نلتقط أصداف المعارف من شاطىء بحر الحقيقة فمن ارتشف من هذا العلم رشفا أبعده ذلك عن الله ، ومن عب عبا قربه ذلك إليه .)

نيـوتــن

عصر تصحيح العلم ..

(الغربلــة)

عصـــر تصحيـــح العلـــم ... (الغربلـــة)

دائماً نجد أنفسنا بين معلوم ومجهـول .. معلـوم ندركـه ونسـيطر عليه ونجعله مسخراً لنا لننتفع به ، ومجهول يحثنا على القلق والحركـة والبحـث لمعرفتـه حتـى إذا أدركنـاه سـيطرنا عليـه ليصبح سبيلاً للنفع وسد الاحتياجات .

ومنذ زمن طويل اعترف العلماء والفلاسفة ، بأننا لا ندرك من العـالم سوى الإنطباعات التي يؤثـر بهـا علـى حواسـنا ، لا الحقيقـة نفسـها ، فمـن مجموع هـذه الانطباعـات تتـألف حقيقتنـا ، ولا يُعـرف شـيء بغـير قيـاس ، والقياس يكون على أدوات معينة أو على أفكار مجردة .

فقديما كـان الإنسـان يـرى الشـمس وبـالرغم مـن ذلـك لا يـدرك حقيقتها أو يدرك شيئاً بسيطاً عن حقيقتها عن طريق الانطباعـات الـتي تؤثـر بها على حواسه مثل : أنها ينبعث منها ضوء وحرارة . ولقلة الامكانيات في ذاك الوقت كان يعتقد أنها تدور حول الأرض ، وأن الأرض مركـز الكـون ولكن مع تطور العلم اكتشفنا جوانبَ أخرى ، وكثيرة عن حقيقية الشـمس مثـل : (درجـة حرارتهـا ، وقطرهـا وكتلتهـا ومـدى بعدهـا عــن كوكبنـا وتركيبها الكيميائى) وبفضل التليسكوب ومركبات الفضـاء والمراصـد المتطـورة عرفنا وأدركنا الكثير عن هذا الكون الهائل ، ومـا عرفنـاه كـان بمثابة نوافذ نطل منها على ما هو غير مدرك وأشد غيباً .. مما فتـح لنـا أفاقـاً جديدة للحيرة والنظريات .

وبالإضافة إلى هذا النوع من المعرفة أو هذه الحقيقة المرتبطـة بحواسـنا حتى ولو عن طريق لانطباعات الأولى أو المبدئية كانت هناك حقائق ليـس

لها انطباعات تؤثر بها على حواسنا لأنها تتعدى حدود وقدرات حواسنا كالموجات ، والمجالات المغناطيسية ، والبكتريا والفيروسات . فقبل اختراع الميكروسكوب والمجهر الإلكتروني كنا نجهل البكتريا والفيروسات ، ولا ندركها رغم أنها تسبح ، وتتكاثر حولنا وفي أجسامنا ، ورغم حقيقة وجودها وتأثيرها .

ملخص القول : إننا في الماضي البعيد كنا لا ندرك من العالم سوى الإنطباعات التي يؤثر بها على حواسنا ، ثم قضينا سنينا طويلة في المعامل والبحث حتى صنعنا أدوات معينة لنرى ، وندرك بها أشياء لم نكن نراها أو ندركها من قبل ، ورغم ذلك فإن ما ندركه ليس الحقيقة نفسها أو الكاملة ولكنه جزء من الحقيقة يقاس حجمه بقدر إمكانياتنا التقنية –وفى نفس الوقت يضيف رقياً إلى تقنياتنا – وربما أيضاً هذا الجزء تشوبه غيوم أو شيء من الخطأ أو القصور . فالعلم كمي أو تراكمي ، ورغم تقدم العلم فمازال العالم حافلا لا ريب بحقائق لا ندركها لقلة علمنا ، وحدود عقلنا ، وعجز نفوسنا . ولذا نقف عاجزين عن الإجابة عندما نتساءل عن هذه الحقائق .. أين عساها توجد ؟

وفى نهاية القرن العشرين –فترة تصحيح العلم وغربلته كما أحب أن أسميها– يحق لنا أن نقول أن العلم .. بأجهزته الدقيقة ، وآلاته العجيبة ، وتقنياته المذهلة .. حول الأشياء بالكشف عن حقيقتها إلى مرآة لنرى فيها أنفسنا وهى تتضاءل فتنفض عنها ثوب الكبرياء والغرور لنعرف حقيقة نشأتنا ، ونشأة كوننا ، وسر الوجود .

أبداً لن يجعلنا العلم تجاه اتساع مجهول ، ولكنه جعلنا بحق أمام

وسيلة نقل واعية تنقلنا من أرض المعتقدات الباطلة ، والأساطير، والأديان المحرفة ، والعلم المزيف الرديء الذي يقول لنا أن الكون ابن الطبيعة والصدفة ليتجه بنا العلم بيقينياته نحو ما لا ندركه .. ليتجه بنا إلى علم لا يشابه علمنا، وقدرة لا تشابه قدرتنا وحياة لا تشابه حياتنا ، وروح لا تشابه روحنا ، وذات لا تشابه ذاتنا . فنجد أنفسنا واقفين بخشوع وخضوع أمام من يدركنا ولا ندركه ، والآن ليس بوسعنا إلا أن نقدم الشكر الجميل للعلم اليقيني لأنه أفصح لنا عن سر الوجود ، وجعلنا نعيش عصر الدلائل المادية على وجود الله . وكشف لنا العلم المزيف ، والعالم الخبيث فهتفت العقول والقلوب مرددة ما أبشعك أيها العلم المزيف ، وما ألعنك أيها العالم ذو النفس الخبيثة بقدر ما أضللت البشر بعلمك الخبيث عن سبيل الله .

فما أروعك أيها العلم اليقيني وأنت تشطب على العلم المزيف .، وعلمائه ، وما أطيبك ، وأنت تتفق حق الاتفاق مع كونيات القرآن ... التي تصدى للكلام عنها منذ أكثر من ١٤٠٠ عام قبل أن توجد التقنيات العلمية الحديثة . فما أروعك ، وما أطيبك ، وأنت تكشف لنا عن معجزات القرآن الكريم علها تكون سبيلا يسلكه الكافرون ، والملحدون ليبدءوا رحلتهم من صحراء الشك والقلق إلى واحة اليقين ، والطمأنينة وعلها أيضا تثير ثائرة المسلمين ليتمسكوا بمنهج الإسلام .
وصدق الله العظيم ذو الجلال والإكرام في قوله تعالى :
﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَآءِ * تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِين بِإِذْنِ رَبِّهَا... ﴾
" سورة إبراهيم الآية ٢٥ "

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْق الأَرْض مَالَهَا من قَرَار ﴾

" سورة إبراهيم الآية ٢٦ "

وصدق العلامة نيوتن حين قال : " إن نحن إلا أطفال صغار نلتقط أصداف المعارف من شاطىء بحر الحقيقة ، فمن ارتشف من هذا العلم رشفا أبعده ذلك عن ا لله ، ومن عب عبا قربه ذلك إليه " .

(ترى المؤمنين في تراحمهم ، وتوادهم ، وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى)

محمد بن عبد الله ..

رسول الإنسانية ونبي الرحمة ..

صلى الله عليه وسلم .

الحضارات بين النور والظلام

* أثر العلم في التوجهات السياسية
* كيف نغير ما بأنفسنا ؟
* حتى نصبح على وطن ..

حين نزل القرآن كان عقل الإنسان محدوداً ، وإمكانياته بسيطة على قدر علمه ، وكان لا يعرف من الضوء الصناعي سوى ضوء الشعلة أو ضوء الفتيل المنغمس في الزيت ، وعندما كان ينظر محملقاً في السماء لا يرى سوى ما تراه عيناه المجردتان ، وكان لا يعرف اتساع الفضاء السحيق ومعجزاته لأنه كان لا يعرف بعد أجهزة التلسكوب ، و السفن الفضائية ..

في ذاك الوقت كان المسلم لا يدرك من علوم القرآن سوى علم الاجتماع ، ونظم الأخلاق في حالتهما البكر ، وبهذين العلمين بالإضافة إلى مبدأ التوحيد ، واقتران تعاليم الدين بالعمل؛ تمت الفتوحات الإسلامية النزيهة الخالصة لوجه الله ، وبالتالي تم توحيد الإنسانية على الحق ، والعدل، والحب ، والإخاء ، والسلام بين أبيضها ، وأسمرها ، وأحمرها ، وأصفرها .

والإسلام شريعة قريبة من الفهم المبصر لكل عالم وجاهل وفيلسوف وغير فيلسوف ، لأنه دين فطرى جامع ، يؤلف بين الوجدان ، والعقل والحس ، ولذلك وجد فيه كثير من البشر ضالتهم المنشودة ، وانتشر الإسلام ، وتقدم المسلمون بسبب التوازن الجميل بين الجسد والروح والعقل ، وظهر العالم المسلم ، والفيلسوف المسلم ، والحاكم المسلم . فوقفت الحضارة الإسلامية* في شموخ وتوازن وصفاء على مقدمه طابور الحضارات.

---

* "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : فالإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته . والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها . والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته . وكلكم راع ومسئول عن رعيته" (متفق عليه)

إن التاريخ يعلن بقوة ووضوح عن حقيقة الثورة الصناعية التي قامت في أوروبا ، والتي ترجع إلى اتجاه أوروبا نحو العلوم التي صنعها العلماء المسلمون ، وتعلمها من الحضارة الإسلامية إلى الدرجة التي جعلها تبدع وتتقدم وتبنى حضارة باسقة .

ويقول المسيو " سيديو " الوزير الفرنسي الأسبق ، وأحد علماء الغرب المنصفين في كتابه (خلاصة تاريخ العرب) :" عندما أتى النبي ﷺ وجه أفكار الأمة العربية إلى مقصد واحد أعلى شأنها حتى امتدت سلطتها من نهر التاج المار بأسبانيا ، والبرتغال إلى نهر الكنج ، وهو أعظم أنهار الهند ، وانتشر نور العلم والتمدن بالشرق والغرب ، وأهل أوروبا إذ ذاك في ظلمة القرون المتوسطة وجهالتها .. وكان لدى العرب من المعلومات والصناعات والاستكشافات ما استفاد منهم نصارى أسبانيا حين تم طردهم منها ، وقد شغف العرب في نهاية القرن الثامن للميلاد بحوز العلوم والمعارف حتى أخذت مدائن قرطبة ، وطليطلة ، والقاهرة ، وفاس ، ومراكش ، والرقة ، وأصفهان ، وسمرقند ، تفاخر بغداد في حيازة العلوم والمعارف " .

ويقول " سيديو " في نهاية كتابه : " لقد كان المسلمون منفردين بالعلم في تلك القرون المظلمة فنثروه حيث وطئت أقدامهم ، وكانوا هم السبب في خروج أوروبا من الظلمات إلى النور . "

لقد استفادت أوروبا من علوم ، وأبحاث العلماء العرب ، والمسلمين أمثال : محمد بن الحسن البصري (المعروف بابن الهيثم) مؤلف كتاب البصريات وصاحب أسس نظريات علم الضوء ، تلك التي أسس عليها جاليليو أول تلسكوب ، وعلى نفس الأساس اعقبه الميكروسكوب والسبتكرسكوب . وغير ذلك من الآلات التي سهلت علوم الطبيعة

والفلك، وقربت المسافات وزادت الحواس إدراكاً فوق إدراكها ...
وأمثال : جابر ابن حيان الصوفي وأثره العظيم في الكشوف الكيمائية، ومحمد بن موسى الخوارزمي صاحب كتاب الجبر والمقابلة ، والسيد الإدريسي صانع أول خريطة للكرة الأرضية ، وابن سينا صاحب القانون العجيب في الطب ، وابن البيطار وبحثه الطويل في النبات الذي اتخذته أوروبا أساساً لعلمها النباتي ، والقاسم بن خلف صاحب كتاب التشريح ، وهو أول كتاب من نوعه وفد إلى أوروبا عن طريق الأندلس كغيره من العلوم والكتب ، ويكفى العرب فخراً في الطب كتاب القانون ، وكتاب الحاوي للرازي ، وقد كان المرجع الهام للطب في أوروبا إلى عهد قريب .

كان لابد من ظهور هؤلاء العلماء وغيرهم –الذين سبقوا أهل أوروبا وغيرهم شرقاً وغرباً في ميادين العلم والمعرفة – حتى يتسنى ظهور " كبلر " ودالتن ، وكوبر نيق ، ونيوتن ، وأنشتاين ، وغيرهم .

أدركت أوروبا بعد هزيمتها في الحروب الصليبية أن السلاح الذي يجب أن تحارب به هو سلاح العلم وليس سلاح السيف ، ومن هذا المنطلق استغل الأوربيون علوم وأبحاث العلماء العرب والمسلمين وترجموها ، وأضافوها إلى ما عندهم مما ورثوه عن الحضارتين اليونانية والرومانية، وكانت الدنيا حبهم الأول والأخير لأنهم أبناء المادة ، والماديات آلهتهم فلا دار عندهم سوى دار الدنيا فعملوا بجد . وجهد ، وعزيمة ليحولوها إلى جنة ينعمون بها ، ويترفون فيها .

في ذات الوقت تقريباً ..... انشغل المسلمون بتفاهات الحياة وزاد حبهم للدنيا عن حبهم لله . وتعلقوا بمتع . ولهو الدنيا فاقدين فلسفة

الإسلام* وسر حضارتهم " إن الدنيا وسيلة لا غاية " ، " واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً " . ومن ثم فصلوا تعاليم الدين عن العمل وجعلوه كامنا في المساجد ، فهانت معصيتهم لله ، واختل توازنهم وراح ينقشع النور ويحل الظلام ، ووقف المسلمون ينظرون بحسرة وندم إلى حضارتهم وهي تترك حاضرهم لتسكن ماضيهم قابعة بين صفحات التاريخ ، وفوق رفوف المكتبات.

وتحولت الأمة الإسلامية إلى غثاء كغثاء السيل بكل ما تحمله أبعاد الكلمة من وهن وسطحية وتبعية ، وهذا ما أخبرنا به الرسول " ﷺ" : " يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها .. قالوا : أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : لا ، بل أنتم كثير ولكن غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن ، قيل : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا ، وكراهية الموت" صدقت يا رسول الله

لم يهدأ عقل الإنسان الأوروبي ، ولم تتوقف فطرته عن دفعه للبحث عن أصل الكون ، وحقيقة نشأته ، وقوانينه ، وتفسير ظواهره ، وبالفعل بعد العديد من التجارب ، والمكتشفات توصلت أوروبا إلى حقائق علمية كونية مذهلة، ولكن تلك الحقائق عارضها رجال الدين النصراني .. لأنها كانت تخالف علومهم الطبيعية التي صبغوها بالصبغة الدينية وسموها " الجغرافيا المسيحية".

---

* ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى (أخرجه البخاري . وكذلك مسلم بعبارات مختلفة)

يقول " سيديو " في كتابه " خلاصة تاريخ العرب " : " إننا نعد ما بلغه المجتمع الإسلامي من الجمود العقلي في أشد عصور تأخره طوراً من أطوار الإصلاح الذي بدأته أوروبا يومئذ . فلم يشهد هذا المجتمع ما شهدته أوروبا من تحجر العقل ، وشل التفكير، وجدب الروح ، وقسوة الضمير ، والضراوة في إبادة الكتب ومحاربة العلم والعلماء ، وإنزال أقسى العقوبات وأقصاها بالمفكرين من أجل أفكار تبدو لنا عادية كانوا يعلنونها في سبيل التجديد والإصلاح . ويذكر التاريخ أن عدد الذين عوقبوا في أوروبا بلغ ثلاثمائة ألف أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفاً أحياء كان منهم العالم الطبيعي " بورنو " وقد نقمت منه آراء أشدها قوله بتعدد العوالم فحُكم عليه بالقتل وأُحرق ميتاً، وعوقب العالم الشهير " جاليليو " بالقتل لأنه اعتقد بدوران الأرض حول الشمس ، وحبس " دي رومنس " في روما حتى مات ثم حوكمت جثته وكتبه .. فحُكم عليها بالحرق وألقيت في النار لأنه قال : " إن قوس قزح ليست قوساً حربية بيد ا لله ينتقم بها من عباده إذا أراد بل هي من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء " . وأصاب " جيوفث" في جينيف، و " غايتي" في ثولوز ما أصاب هؤلاء ، وحُرقا مشياً على النار ولا جدال في أن تاريخ الإسلام لم يعرف هذا الاضطهاد الشنيع لحرية الفكر والعلم والذي عرفته أوروبا .... "

" ونتيجة لهذا التعسف ، والتحجر ، والجهل ، والطغيان ، والظلم من جانب المسئولين عن الدين النصراني نفذ صبر علماء المادة ، وأنصارهم وقاموا في وجه هذا الطغيان الجارف ، وصاروا حرباً على الكنيسة وأنصارها وكرهوا كل شيء يتصل بالدين النصراني ، ويعزى إليه من عقيدة ، وثقافة، وعلم ، وأخلاق ، وآداب بل تجاوزوا ذلك إلى كراهية كل دين ، وكل قديم ، وكل ما وراء الطبيعة وأقاموا حرباً شعواء بين الدين والعلم

التجريبي ، وقرر الثائرون أن الدين والعلم ضرتان لا يمكن التصالح بينهما بل ضدان لا يجتمعان أبداً ، فمن آمن بالدين النصراني كفر بالعلم التجريبي ومن آمن بالعلم التجريبي كفر بالدين النصراني .

ومنذ هذا التاريخ تكونت عند رجال العلم التجريبي في أوروبا وأنصارهم في كل مكان عقدة من كل دين ، ومن كل متدين ، فإذا ما وعظهم واعظ أو ذكرهم داع بالدين تذكروا طغيان القساوسة ، وحكومتهم المطلقة ، وتذكروا الأرواح التي أزهقت والدماء التي أريقت في سبيل العلم التجريبي ، والاكتشاف ، والتحقيق ، وتذكروا تلك العقول المتحجرة والصدور الضيقة والوجوه العابسة ، فصاحوا .. فليسقط الدين ويحيا العلم ، فلتسقط "الثيوقراطية" الحكومة المطلقة .. وتحيا الديمقراطية"[1].

فليسقط الدين ويحيا العلم ... رفعت أوروبا هذا الشعار ، ولكن أي دين يسقط وأي علم يحيا ...هل يستوي الدين المحرف ورجاله الطغاة بالدين الصحيح ورجاله الصالحين ؟ وهل يستوي العلم الزائف بالعلم اليقيني ؟

لم تطرح أوروبا هذين السؤالين للمناقشة والبحث بعد ثورتها على الدين النصراني ورجاله ، ومن ثم اتجهت مندفعة فقط نحو العلم جملة بيقينياته ومزيفاته (ظنياته) .

ونتيجة لذلك ظهرت نظريات بلا دليل مادي ، والتي تطلب تفنيدها بعد ذلك جهوداً عظيمة ومئات السنين ، أمثال : نظرية "التولد التلقائي" التي فندها العالم الفرنسي الشهير " باستير " *Pasteur* ليؤكد بذلك نظرية

---

(١) حقيقة ظهور الدين (عثمان القطعاني)

" الأصل الحيوي للأحياء " ، ونظرية التطور للعالم " لامارك *Lamarck* "، والتي ثبت عدم صحة قانونها الثاني ، ونظرية التطور " لداروين *Darwin* " ، والتي مازالت حتى الآن تتأرجح بين مؤيدين ومعارضين ، ونظريات تكوين جنين الإنسان التي تضاربت فيها آراء العلماء وكتبوا فيها العدد العديد من الكتب ، والمجلدات. ثم استقروا بعد أن تقدم العلم وتقدمت وسائل البحث إلى خطوات يقينية لتكوين الجنين تماثل تماماً خطوات تكوين الجنين التي ذكرها القرآن[1] منذ أكثر من ١٤٠٠ عام .

وهكذا حاولت أوروبا أن تتخذ من العلم سبيلاً لنفي وجود خالق لهذا الكون ، وعلى الرغم من أن تلك النظريات ، وغيرها كانت بلا دليل علمي مادي إلا أن أوروبا بنت عليها نُظم حياتها المختلفة (السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ...) وأحيت أفكار الفلاسفة القدامى التي تتفق وفلسفة حياتهم، و أعلنت التصريح بالمادية والعلمانية وكل ما يساعدهم على الثورة ضد الأخلاق والفضائل ونشر دعوة الإباحية وإرضاء الشهوات، وهتفوا مرددين حكمة الشيطان " دعه يعمل ويمر بلا حواجز " وما الحواجز في اعتقادهم إلا الأخلاق ، والفضائل ، والأديان . وإن الدين وإن كان لابد منه فقضية شخصية لا تتعدى حدود الصلاة والشعائر التي تمارس في دور العبادات ، وينبغي عليه أن يعيش طوعاً أو كرهاً بعيداً كل البعد عن أمور السياسة والدولة ، وظهرت الأيديولوجيات السياسية التي اعتمدت على مبدأ " الغاية تبرر الوسيلة " والوسيلة هنا كونها دنيئة ولا أخلاقية

---

(١) ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً ءاخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾

فهذا لا يؤلم الضمير السياسي طالما أنها جديرة بالوصول إلى الهدف .

وهذا هو مبعث توجهات حكام أمريكا فنجد نيكسون يقول : "إن الخليج بؤرة حيوية لأمريكا وأي محاولة للسيطرة عليه تقاوم بكل الطرق الممكنة بما فيها القوة المسلحة " .. ويقول أيضاً : " سوف تلعب السياستان الأمريكية ، والغربية مع المسلمين دوراً رئيسياً في تحديد الخيار الذي تختاره الشعوب المسلمة " .. وهذا ما يحدث بالفعل في الخليج ومع المسلمين .. ونجد كلينتون يقول :" بالسباق مع التغيير" .. بصرف النظر عن نوع الوسيلة (أخلاقية أم دنيئة) ، ومن قبله " بوش " الذي يقول " بالتفويض الإلهي لأمريكا للسيطرة على العالم . "

وهكذا راح السياسيون يخططون النهج الجديد الذي يجب أن يسيروا عليه معتمدين على استغلال ذاك المبدأ بكل الإمكانيات المتاحة على مختلف المستويات السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ..، وظلوا يشرحون بأمانة واعية ليس فقط كيفية صناعة الأقنعة ، وإنما متى يجب ارتداء القناع المناسب في الفرصة السانحة .

ونشبت الحروب بين الدول ، واحتلت الدول القوية الدول الضعيفة، ثم تطورت السياسة وظهرت الحروب الباردة (كالتي كانت بين أمريكا وروسيا) ، وظهرت الهيمنة السياسية الماكرة والهجوم السلمي والاحتلال المقنع (كاحتلال أمريكا لدول الخليج بحجة الدفاع عنه بعد هجوم صدام على الكويت) ، وأصبحت المشاركة في الحروب بالموقف السلبي (كموقف أمريكا والدول المتقدمة تجاه قضية فلسطين ولبنان والجولان ...)

وارتدت تلك السياسات أقنعة تحقيق السلام والعدل ، والصداقة ، والدفاع عن الضعيف .

أما وجهها الحقيقي الذي كشفت عنه المواقف هو فقط الدفاع عن المصالح العليا والخاصة دون أدنى نظر إلى المبادئ ، والأسس ، والأخلاقيات وهذا ما يعيشه العالم اليوم .

وهكذا تطورت أشكال الحروب ، والهيمنة في دول العالم المتقدم بينما الحروب المباشرة التقليدية بقيت قائمة بين دول العالم الثالث .

كيف نغير ما بأنفسنا ؟

إن العلم لا يقود الإنسان دائماً نحو الحقيقة ، فما به من يقينيات يقود نحو النور ، وما به من مزيفات (ظنيات) يقود نحو الظلام .. فمنذ بداية العلم وحتى أوائل القرن العشرين كانت الإمكانيات العلمية محدودة .

ولذا انتشر العلم الظني (المزيف) ، ومثلما كشف العلم اليقيني حقيقة تحريف التوراة والإنجيل ، أتاح العلم الظني الفرصة للهجوم ضد الإسلام وبالتالي هيأ سبلاً للإلحاد بسبب تعارض العلم الظني مع بعض آيات القرآن الكونية ، ذاك العلم الذي كان يُعتقد في صحته وأثبت العلم الحديث عدم صحته .

وأصبحت المقارنة في جميع النواحي والأحوال ليست لصالح الإسلام فنجد تفوق الاقتصاد الأوروبي على اقتصاد الدول الإسلامية ، وتمدن وحداثة المجتمعات الأوروبية لدرجة الإبهار مقابل تخلف وجهل وتواكل المجتمعات الإسلامية لدرجة الاشمئزاز والنفور .

وهكذا مما جعل الإيمان بأوروبا ، والمادية ، والإباحية ، والمفهوم العبثي للحرية أسهل من شرب العصير المثلج في جو حار .

وأصبح العالم يرى الإسلام ومنهجه من خلال حال المسلمين ، وحسبوا أن ما يعيشه المسلمون هو الإسلام . بل أختلط الأمر على بعض المسلمين ونظروا إلى أمتهم بنفس نظرة العالم إليها ، وتغاضوا أو أغمضوا أعينهم عن الإسلام ، واعتقدوا أن لا أمل في التقدم والرقى إلا ياتباع نهج أوروبا .

وما يدعو للسخف أن يقول كاتب مشهور وهو فخور بالمجتمعات

الأوربية (الصناعية أو التجارية) ونهجها الـذي يتمثـل في الأيمـان بالإباحيـة والمادية والمفهوم العبثي لمعنى الحرية ، والإنحـلال ، والثـورة علـى الأخـلاق ، والعقائد .

وتحتني الأمانة على عـرض فقـرة هـذا الكـاتب دون حـذف أو اختيـار جزئي : " وحيث تكون النهضات كما في إيطاليـا في القـرن السـادس عشـر أو فرنسا في القرن الثامن عشر نجـد التسـاؤل والاسـتطلاع ، ثـم الاسـتنباط تحليلاً وتركيباً . فالمؤلف يسلط النور والحرارة معاً على المجتمع المتغـير الـذي يعيش فيه فيؤلف عن وجدان اجتماعي ، وإحساس روحـي واختـلاف فـني . وقد يحدث من ذلك أحياناً اختلاط وفوضى ، ولكنهما ليسا أمـارة الانحـلال وإنما هما علامة النشاط في مجتمع يمرح مرح الطفولة التي تزخر بالحياة " .

تذكرت عند قـراءة هـذه الفقـرة موقـف " علـيٍّ" كـرم ا لله وجـه مـن الخوارج حين رد على هتافهم " لا حكـم إلا لله " بقولـه " كلمـة حـق أريـد بها باطل ".
فكلمـة حـق هـذا الكـاتب هي أن " المؤلف يسلط النور والحرارة معـاً علـى المجتمع المتغير الـذي يعيـش فيـه فيؤلـف عـن وجـدان اجتمـاعي ، وإحسـاس روحي ، واختلاف فني " . أما الباطل الـذي أراده هـو الاختـلاط والفوضـى واللهو والمفهوم العبثي لمعنى الحرية ، ثم إنـه صنـع رداء لكـل هـذا الانحـلال الذي تعانى منه أوروبا وتعترف به . وأطلق على هذا الرداء " مـرح الطفولـة التي تزخر بالحياة " .

إن فقرة هذا الكاتب تحمل آراء سطحية رغـم ارتدائهـا رداء العقـل ، فإننا ندرك تماماً أن الاختلاط والفوضى نتيجة حتمية للانحلال ، ولكن ليـس بوسـع الإنسـان العـادي أو الفيلسـوف أو العـالم أن يـدرك أن الاختـلاط

والفوضى هما علامة النشاط .. حتى هذا لم يكن في عالم الحشرات .. ولذا يجب علينا أن نفهم المقال في ضوء المقام .

ويقول الكاتب في فقرة أخرى " ولا أستطيع أن أقول إن الكتب العربية ترتفع إلى مقام يتيح لها تخريج الرجل الناضج الذي يتساءل ويستطلع وإن كان هناك قليل من الكتب المترجمة قد يؤدى هذه الخدمة . وقد كان في مقدورنا أن نترجم نحو مائة كتاب عالمي من تلك الكتب التي غيرت المجتمع ووجهته ولكن مجتمعنا الزراعي الحاضر يكره هذا التغيير وهذا التوجيه . ولذلك أقول مرة أخرى إننا في عقم ثقافي لا نلد ولا نتوالد ولذلك أقول أيضاً في صراحة مؤلمة إن القارئ المصري لن يكون متمدينا في ذكاء نشيط وعلى ثقافة عصرية إلا إذا درس لغة أوربية ، واستمد منها حاجته من الكتب العظيمة والمؤلفين العظماء الذي يستنبطون الفكرة الخصبة من المعارف الخاصة . فينعطف التاريخ ويتغير وجه الأرض ، وهؤلاء هم المؤلفون الإيمائيون " .

وبصرف النظر عما يشير إليه هذا الكاتب من بين السطور فكما نرى أنه اتهم كل الكتب العربية بالتخلف ، والرجعية ، وبالتالي كل الكتاب العرب، وراح يربط التمدن والذكاء النشيط بمعرفة اللغة الأوروبية دون غيرها والكتب الأوروبية دون غيرها، والكتّاب الأوربيين دون غيرهم.

إن مرجع أفكار هذا الكاتب تأثره المبالغ فيه بأوروبا وانبهاره بحضارتها منذ سفره إليها وهو في سن العشرين ، ولأنه سافر قبل أن يتأسس بداخله ركيزة أو منهج كان كالإناء الفارغ فاتسع ليمتليء بكل ما هو غث، وثمين دون أن يعي أن الغث غث ، وأن الثمين ثمين ، وهذه آفة كبرى .

إن عقله امتلأ بحضارة لا يعرف لها قياس أو ميزان ، فأصبح لا طاقة له باستيعاب حضارتنا الأصلية الأصيلة من إيجابيات ، وتوازن.. إنه لم يمر بمرحلة الإبداع لأنه لم يمر بمرحلة استيعاب هموم الأمة العربية وبالتالي لم يحاول أن يمسك ثوب الأمة لينفض عنه ما التصق به من أفكار ، ومذاهب غريبة ، وهدامة ، وعادات ، وتقاليد سيئة بالية ... كيف يفعل ذلك وهو لم ير سوى كل الخير في أوروبا ، وكل الشر في مجتمعاتنا .

إننا جميعاً نعلم تماماً أن مجتمعنا يعاني وفي مأساة ولكن يجب علينا أن لا نحكم عليه بأنه يكره التغيير وألا نقول في بساطة شديدة أن الحل يتمثل في تطبيق الأفكار الأوروبية .. إن أول ما يجب علينا أن نفعله هو البحث في علاقة التنافر بين المعرفة والتطبيق ، فعلى سبيل المثال : نحن نتعلم أهمية غسل الأيدي قبل وبعد الأكل ولكننا قلما نفعل ذلك ، ونعرف جيداً أن النظافة من الإيمان ، ولكن لا أحد منا ينظف أمام بيته . وإذا كان هذا التنافر القائم بين المعرفة والتطبيق أو بين تعاليم العقيدة والتطبيق يعود إلى أسلوب التنشئة التي يربي عليها الفرد .. بغض النظر عن تعاليم العقيدة ، وإذا كان أسلوب التنشئة يرتبط بالسلوك ، والقدوة ، والحالة الاقتصادية للفرد وللمجتمع ، ولا يرتبط بالتعاليم القيمة التي يعتنقها الإنسان – قولاً فقط وليس عملاً – فيجب علينا أن نبحث عن علاجات منطقية وموضوعية لنقرن المعرفة أو تعاليم العقيدة بالتطبيق ، وأن نغير اعتقاد المسلم تجاه الْبِرَّ حيث إنه يعتقد ان البر هو ان يولى وجهه قِبَلَ المشرق والمغرب ولكن البر ليس كذلك .. بينما هو العمل بتعاليم الدين . .

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ

وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَـى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ
وَٱبْنَ ٱلسَّـبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِـى ٱلرِّقَـابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَـى ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱلْمُوفُـونَ بِعَهْـدِهِمْ إِذَا عَـٰهَـدُواْ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِـى ٱلْبَأْسَـآءِ وَٱلضَّـرَّآءِ
وَحِـينَ ٱلْبَـأْسِ ۗ أُوْلَـٰٓئِـكَ ٱلَّـذِينَ صَدَقُـواْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِـكَ هُـمُ ٱلْمُتَّقُـونَ ﴿١٧٧﴾

" سورة البقرة – الآية ١٧٧ "

لسنا في حاجة إلى استيراد أفكار أوروبية كما يدعى هذا الكاتب بقدر احتياجنا إلى إحياء هويتنا الأصلية الأصيلة ، والإيمان بها ، والبحث عنها وسط الهويات المختلفة التي احتلت ديارنا ، فنحن في حاجة إلى غربلة كل ما لدينا من أفكار ، ومذاهب ، وعادات ، وتقاليد .. لنبقى على المفيد، ونعمل على تطويره بالشكل الذي يتناسب مع ديننا ، وقيمنا ، ومبادئنا ، وعصرنا الحديث .
ولا يتم ذلك بجدوى إلا إذا تخطينا حدود النظرية بالتطبيق العملي والفعلي. وبنفخ روح الإرادة في أنفسنا بتحديد الهدف والإيمان به .

وهذا لا يعنى ترك الحضارة الغربية برمتها ، بل يجب علينا البحث فيها عن الإيجابيات لنحذو حذوها ، ونستفيد منها مثلما استفاد المسلمون الأوائل من نظم وحضارات البلاد التي فتحوها ، ومثلما أيضاً استفادت أوروبا حين ذاك من علوم العرب والمسلمين ، بل يجب ألا يقتصر دورنا في حذوها فقط بل تجاوزها والإضافة إليها .

والكلمة الأخيرة التي أقولها لهذا الكاتب . فلتنظر إلى اليابان ... الشمس المشرقة التي يتمسك أهلها بالقديم ، وبكل ما يدعم هويتهم ، ومبادئهم مع إدخال بعض التعديلات المناسبة لسنة التطور ...

فمازال شعب اليابان يرتدى زي الكيمونوا الشهير أو يحترمه على الأقل ، ومازال الرجل محترماً جداً ، والمرأة تكاد تكون مكانتها في الدرجة الثانية . " وإن كنت لا أدعو إلى التفرقة بين الرجل والمرأة " .

فلتنظر إلى الشعب الياباني الهادئ البسيط الذي له سماته الخاصة ، وكينونته الفريدة ... ومع ذلك فهو متقدم ومنافس من غير أن يترك حضارته وهويته، وبدون أن يرتدى رداء الفوضى الأوروبي الذي تطلق عليه " مرح الطفولة التي تزخر بالحياة " .

لسنا | في حاجة لاستيراد مشاريع وضعية كالشيوعية أو الرأسمالية ... بل نحن في حاجة إلى دراسة متأنية للمشروع الإسلامي بمنهجه الإلهي .

فالحقيقة أن الإسلام دين كامل ، وعقيدة صحيحة شاملة ... أما نحن المسلمين فإننا لا نقرن المبادئ الإسلامية بمعاملاتنا ، ورغم حفظنا للمبادئ الإسلامية عن ظهر قلب إلا أن أفعالنا لا تتفق معها ، فالنطق بالمبدأ أمر ، وتعود السلوك بما يطابقه أمر آخر ... وأصبح لكل منا سلوك خاص حسب مواريثه ، وعاداته ، ونظرته بعيداً عن السلوك العام الذي ينظمه المنهج الإسلامي ، ومن هنا بدأت قصة الخلافات التصادمية .

وتعلن حال الإسلام اليوم بأنه يقع دائماً بين فكين .. أحدهما تراجع وتخلف المسلمين والآخر هيمنة النموذج الحضاري الغربي .. أحدهما اختلاف وخلاف المسلمين في الفروع ، والآخر الجهل بالدين الحنيف ... أحدهما خلل وتعصب الحركات الإسلامية ، والآخر انحراف أصحاب الطرق الدينية المبتدعة .. أحدهما ضعف حركة الدعوة ، والآخر انتشار التيارات العلمانية والإلحادية .. أحدهما القول بما لا نفعل ، والآخر الفعل بما لا نقول .

ونتيجة للجهل والتقاليد الزائفة ، والعادات السيئة ، والمعتقدات الخاطئة ، والبدع ، والخرافات ، بالإضافة إلى ضعف إرادة التمتع الروحي والنفسي مقابل انطلاق إرادة التمتع المادي .. وانتشار ما يدعم هذه السلبيات في جميع وسائل الأعلام ، أصبحت الأمة العربية والإسلامية مقيدة بقيود التخلف مما أسفر عنه احتلال ظواهر النموذج الغربى لعقل الأمة

بدون استيعاب ، فأصبح بلا هوية عربية إسلامية أو مناخ فكرى عربي إسلامي ، فتنوعنا أفراداً ودولاً وحكومات وفقد التعاون اتصاله بنا ، وصار عقل الأمة الإسلامية والعربية مرتعاً لجميع مساوئ طباع ، ومذاهب العالم وفقدنا القدرة على تحديد المصير ، وأصبحنا نسير بلا هدف ، وأصبحنا نعيش في عصر صراع الأهواء . وبسبب هذا التفكك وذاك التصادم بين الدول العربية والإسلامية ، وموقفنا السلبي تجاه قضايانا .. حكم علينا التاريخ – بعد أن حكمنا على أنفسنا – بإراقة دمائنا ، وانتهاك حقوقنا وتشريد أطفالنا ، وامتلأت صفحات التاريخ بعلامات التعجب والإنكار لأننا مازلنا نضحك ونضع المساحيق ، ونرتدي أجمل الثياب ، ونقفز إلى أعلى في نشوة وسعادة ، ونتصرف كما لم يكن قد حدث شيء ، وأقصى ما نطمح إليه هو أن ننتظر من الدول الكبرى العطف علينا بموقف إيجابي يخدم قضايانا ... وكأننا نبحث عن قطع الثلج في حمم البراكين .

ألم يعصف بنا العالم كما يهوى لكي لا نلاحظ أن قضايانا العربية والإسلامية لاتهم سوى العرب والمسلمين .

ألم يعصف بنا العالم كما يهوى حتى لا يرى مثقفونا ، وعلماؤنا ، ومفكرونا ،والسلطات الحاكمة أنه حان الوقت للترابط ، وتضافر الجهود لدراسة كل السلبيات التي نعانى منها لوضع نهج علمي وعملي تتزن فيه الرؤى والسبل وفق هدف رسالي واضح تسير عليه الأمة العربية والإسلامية لكي يتم الناقص ، ويتضح الغامض ، ويقترب الخطأ من الصواب حتى نهم جميعاً بتماسك وبشتى الطرق المشروعة ليس فقط لنفض ثوب الأمة من الهيمنة الغربية ، ولكن لإعادة نسج ما بلى منه ، وذلك لإتاحة الفرصة لنا لندافع عن قضايانا فنقفز من مرحلة التبعية ، والرجعية ، والذيلية إلى مرحلة المقدمة ، والتحكم في مقدراتنا .

والآن من المهم أن نتساءل ... عن نوع القضية التي يعانى منها العالم، وجعلته يعيش في نفاق سياسي ، وإيمان زائف ، وعقول خائرة ، وصدور واهية ، وعواطف فاسدة ، وظلام ، وخراب ، وظلم ، واستبداد .

من المؤكد أن القضية ليست قضية دول غنية و دول فقيرة ، أو دول علمية ودول جهليه ، أو دول متقدمة و دول رجعية .. ولكنها قضية بُعد كل من الدول الغنية والدول الفقيرة عن تعاليم ا لله ، وعن القيم والمبادئ ... مما جعل قوة الدول الغنية .. قوة طاغية ، وممارساتها تنحدر نحو الغطرسة ، وجعل أيضاً ضعف الدول الفقيرة ..ضعف مخزٍ يجرف إلى وضع شائن بغيض . فلم يعد القاتل يقتل بشرف ، ولم يعد المقتول يموت بكرامة .

والقضية بهذا الوجه تحدد ملامح وجهها الآخر الذي يعبر عن سباق العالم مع التغيير لتحقيق غاية أو مكانة يُظن أنها مكانة عالية على خريطة العالم بصرف النظر عن نوع الوسيلة التي تتبع لهذا التغيير .

والآن أحاول أن أخترق حاجز التشاؤم وأُغامر بتساؤل :ترى هل مازال هناك أمل في أن نكون ؟ هل مازال هناك أمل في أن نتعاون ، ونتحد ، ونغير ما بأنفسنا حتى يغير ا لله ما بأمتنا .. مصداقاً لقوله تعالى " إن ا لله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " وآخر دعوانا أن نصبح على وفاق وعصبة حتى نصبح على وطن *.

---

* ﴿ واعتصموا بحبل ا لله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمت ا لله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها كذلك يبين ا لله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾. " سورة آل عمران – الآية ٣٠ "

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾

قرآن كريم

الآية ٢١٣ .. سورة البقرة

الأديان سابقة على ميلاد الأساطير

* متى تمت معرفة الله ؟
* كيف نشأت الأديان ؟ ..

وكيف نشأت الأساطير ؟

متى تمت معرفة الله ؟

تعددت الآراء والأبحاث التي تناولت قضية نشأة الدين ففريق يرى أن الأديان نشأت عن الأساطير وفريق آخر يرى أنها قامت على الوثنية ، ونظرية تقول بأن الأديان وفكرة الإله نشأت بشكل تطوري من الأفراد ثم الجماعات ، ونظرية أخرى تقول بأن الأديان نشأت من فكرة تطورية وجدت مع الإنسان منذ ميلاده .

وهناك الكثير من الآراء والأبحاث التي لم تضع نهاية حاسمة لهذه القضية وسوف نقوم بعرض بعض الدراسات في هذا الصدد .

كتب " جوستاف لوبون " عالم الاجتماع في كتابه " حياة الحقائق " عن عبادات البشرية الأولى المفترضة .. " تشتق الافتراضات التي نسجت حول عبادات البشرية الأولى من دراسة الأديان لدى الهمج في الوقت الحاضر ، وتتبع بعض الآراء التي لا يقرها علم النفس ، فيظن في بدء الأمر أن الديانات قامت على الوثنية والروحية ، ومن المؤرخين من قالوا بأن الطُّوطَمِّية سبقت تلك الديانات الأولى .

و الطُّوطَمِّية ما تجد وصفها في تسميٍّ كثير من العشائر الوحشية بأسماء الحيوان أو النبات .

وما قام به علماء الاجتماع من الأبحاث الكثيرة لم يؤد إلى اكتشاف عبادة ابتدائية خاصة في الطوطمية ، ولا شيء يميز الطوطمية من الوثنية في الحقيقة ، والطوطم ... حيواناً أو نباتاً أو جماداً ، يبدو رمزاً لاجتماع قبيلة فلم يلبث أن يصير وثنا . والطوطم يمكن قياسه بالصور التي تُرسم على

رايات وبأشعرة القادة المقاتلين في كل زمن ، فالطوطمية ليست دينا ، والدين لم يغز بيضها إلا بعد زمن .

وتظهر الروحية لنا وثيقة الصلة بالوثنية مع أن المؤرخين يفصلونها عنها ، فمن المتعذر أن يكون أقل الهمج ذكاء قد عبد حجراً أو خشباً من غير أن يفترض اشتماله على أرواح خفية والتفريق الوحيد بين الوثنية والروحية ، " وهذا التفريق موضع جدل " هو ما يقوم على قول الروحية باستقلال الأرواح وسيرها كما تشاء بدلا من استقرارها بالأشياء".

كان لابد من عرض آراء " جوستاف لوبون " فيما قام به العلماء من دراسات وأبحاث عن عبادات البشرية الأولى المفترضة لنرى كيف تعثروا في طرق مظلمة .

والآن حان المقام لعرض بعض الدراسات التي تؤكد أن الدين أو معرفة الإله وجدت مع وجود الإنسان الأول ، وأن التوحيد الخالص كان قبل الوثنية وتعدد الآلهة .

أثبتت أبحاث العالم الألماني الدكتور " ميللر " الذي كان له اليد الطولى في حل رموز السنسكريتية بالهند : " أن الناس كانوا في أقدم عهودهم على التوحيد الخالص وأن الوثنية عرضت عليهم بفعل رؤسائهم الدينيين . "(١)

وفى دراسة عن عقائد القبائل الوثنية في أفريقيا وجد : " أن فكرة الله الأعلى ، تكاد تكون موجودة لدى جميع القبائل ، بل أن مفهوم الذات الإلهية الكلية الحضور ، والذاتية الاكتفاء والشاملة القدرة نجده بين كثير من القبائل ، كالزولو بجنوب أفريقيا والبايرا وندا والإشانتى بساحل العاج ،

---

(١) من مقدمة " تفصيل آيات القرآن الكريم " تأليف جول لابوم – ترجمة : محمد فؤاد عبد الباقي

والأكـان بغانـا ، والـيروبا بنيجيريا ، والبـوكـونجو بأنـجولا ، والنجـومية بالكونغو ، ومن اليسير إعطاء أمثلة كثيرة غير ما سبق لولا ضيق المقام .

على أننا يجـب ألا يفوتنـا هنـا أن نذكـر أن لـدى الأقـزام وهـم أقـدم سلالات أفريقيا ، كائنا أعلى يطلقون عليه أسم " مونجو " وإلى هـذا الكـائن الأعلى يعزو الأقزام أيضا خلق جميع الأشياء وأنها ترجع إليه .

كما أن هناك أسطورة من قبائل لشاجا بتنزانيا تـروى أن ا لله غضـب من أعمال البشر فأهلكهم فيمـا عـدا قلـة . وجـلا مـدى التشـابه بـين هـذه الأسطورة وقصة سيدنا نوح .

ويروى البامبونى والتشاجا والميرو . كيف أن الرب حـرم أكـل ثمـار شجرة معينة على الإنسان ، وكيف أنه حينمـا عصـى الإنسـان الأمـر وأكـل منها جاء الموت إلى الأرض .

وجميع الأديـان الأفريقيـة التقليدية تعتقـد فيمـا وراء المـوت بشـكل أو بآخر ، كما تعتقد أن المتوفى تستمر حياته في عالم الأرواح .

ومفاهيم الخير والشر موجـودة في هـذه الديانـات بـل لعلهـا عميقـة الجذور فيها إلى حد لا يتصوره الكثيرون .

وتعتقد قبائل التوركانا من كينيا مثلاً أن ا لله مع أنه يشفى مـن المـرض ، قـد تصيب به أولئك الذين يغشون المحارم ويخالفون الطقوس الهامة[1]

نجد أن هذه الدراسات التي تقرر مبدأ التوحيد والـتي تتفـق إلى حـد كبير جداً مـع الديانـات السـماوية ، لا ينافيهـا علـم يقيني مما يجعلها مقبولة

---

(١) الـرب وا لله وجوجـو (الأديـان في أفريقيـة المعـاصرة) . تـأليف القـس جـاك منـد لسـون . ترجمـة إبراهيم أسعد

وقائمة بلا منافس طالما استطاعت تفسير جميع الظواهر القائمة والمستجدة المتعلقة بموضوعاتها .

وما يؤكد هذه الدراسات هو ما قرره القرآن الكريم فنجد على سبيل المثال في سورة يونس﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ ..﴾

" سورة يونس – الآية ١٩ "

وفي سورة البقرة ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾

" سورة البقرة – الآية ٢١٣ "

متى نشأت الأديان ؟
وكيف نشأت الأساطير ؟

منذ أن خلق الله آدم وجعله خليفة في الأرض ، وهو يعرف ربه حق المعرفة ، وبالتالي يعرف عقيدته ، وهى عبادة الله الواحد الأحد .. كما يصح أن نقول أن آدم هو الإنسان الوحيد الذي لم يدر بخلده أسئلة مثل التي تدور بخلدنا عن ماهية فلسفة الحياة عامة وحياتنا بشكل خاص وعن حقيقة الأديان .

والسبب في ذلك هو أن الله علم آدم بطريقة مباشرة ....

﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

" سورة الأعراف – الآيتين ٢٤ ، ٢٥ "

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ .

" سورة طه – الآية ١٢٣ "

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

" سورة البقرة – الآيتين ٣٨ ، ٣٩ "

امتد علم آدم إلى أبنائه وأحفاده حتى جاء جيل ابتدع فكرة صنع التماثيل لرجال الدين الصالحين ، وربما كان هؤلاء الرجال من قبائل مختلفة في قوم

واحد ، وبعد وفاة أحدهم أقامت قبيلته التي ينتمي إليها تمثالاً له للذكرى والتكريم ، وقامت القبائل الأخرى بتنفيذ نفس الفكرة ولكن ليس بغرض الذكرى والتكريم فقط ولكن بغرض المفاخرة والتعظيم والمنافسة . وكان أشهر وأعظم هذه التماثيل أو هؤلاء الرجال الصالحين (ود – سواع – يغوث – يعوق – نسر) .

ومع مضى الزمن ، وجيلاً بعد جيل نسى الناس مغزى صنع تلك التماثيل وأحبوها – أحبوا غير ا لله ، فعصوه وعبدوها من دونه ظناً منهم أن أرواح الصالحين الخمسة التي تسكن التماثيل – كما يعتقدون وكما أوحى لهم إبليس – تقوم بالشفاعة لهم عند ربهم ، فتجلب لهم النفع وتحجب عنهم الضُر .وتلك هي بداية انحطاط العقل البشرى ، الذي عبد صنماً أو حيواناً أو بشراً أو نحو ما يتفق مع هواه ، وعلى هذا النحو قامت الديانات الوثنية وقامت طرق الضلال التي سلكها الضالون متخبطين عبر الأزمنة .

أراد ا لله أن يرشد هذا القوم إلى طريق الهداية فاختار منهم رسولاً يدعوهم إلى عبادة ا لله الواحد الأحد ، وتسفيه الوثنية .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ . " سورة المؤمنون – الآية ٢٣ "

لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى عبادة ا لله الواحد الأحد . ويكلمهم عن التوحيد والرسالة والبعث والجزاء .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ " سورة العنكبوت – الآية ١٤ "

ورغم هذا العمر الطويل الذي منحه ا لله لنوح لهداية قومه ، إلا أنهم كانوا

متمسكـــين بالكفر والضلال جيلاً بعد جيل ولا يرون إلا مقلوب الحقيقـــة

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ ﴾

" سورة الأعراف – الآية ٦٠ "

ومـــاذا فعـل نـوح ؟

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾
أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

" سورة الأعراف – الآيتين ٦١ ، ٦٢ "

يئس نوح من عناد قومه ومـن شـدة فجرهـم وكفرهـم وراح يفكـر حتى أوحى ا لله له بأمر سديد .

﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

" سورة هـود – الآية ٣٦ ، ٣٧ "

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

" سورة هود – الآية ٤٠ "

بعد أن فرغ نوح من صنع السفينة فار الماء من التنـور (مكـان النـار كالفرن وعندما رأى نوح الأرض وهى تصير عيوناً تفور بالماء فعـل مـا أمـره ا لله به بأن حمل في السفينة من كل صنف أثنين – ذكراً وأنثـى– وقال لأهله

وأتباعه المؤمنين وهم قلة وهو يشير إلى السفينة .....

﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

" سورة هود – الآية ٤١ "

وبعد أن ركبوا السفينة جميعاً بدأ الطوفان يعلن عن نفسه وعن قوته حتى أغرق كل من على وجه الأرض ، ولم ينج إلا نوح والمؤمنون والمخلوقات التي ركبت معه السفينة .

وبعد أن هدأ الطوفان واستقرت الأحوال ...قال ا لله تعالى :

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ... ﴾

" سورة هود – الآية ٤٨ "

وهبط نوح ومن معه من السفينة بسلامة وأمن واستقروا في الأرض التي طهرها الطوفان من الكفر لينعموا بالخيرات العظيمة التي منّ ا لله بها عليهم. وبهذا الطوفان أصبحت الأرض طاهرة مثلما كانت من قبل عندما استقبلت آدم عليه السلام أب البشر الأول ، وأصبح أيضاً نوح عليه السلام بحق أب البشر الثاني .

ومع مرور الزمن وبتعدد الأجيال وتكاثرهم ازداد عدد الجنس البشرى فانتشروا وتفرقوا في الأرض بحثاً عن الطعام والاستقرار وحباً في المغامرة والاكتشاف وبذلك نشأت الأمم والشعوب المختلفة وأصبح لكل أمة عادات وتقاليد خاصة تبعاً للبيئة وحسبما جرت عليه العادة ، وصفات جسمية مميزة تبعاً لنصيب كل أمة من الجينات التي تحددت بانفصال كل مجموعة على حدة .

وبمضي الزمن .... نسى الناس قصة نوح وتعاليمه وعادوا مرة أخرى للشرك وعبادة التماثيل التي صنعوها لآبائهم الصالحين الذين نجاهم ا لله من

الطوفان ومن ثم كان من سنن الله إن يبعث في كل أمة رسولاً منهم لإحلال التوحيد محل الشرك ، وتسفيه الوثنية وتقرير التوحيد والرسالة والبعث ، والجزاء .

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ......﴾ " سورة النحل- الآية ٣٦ "

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

" سورة البقرة- الآية ١٢٩ "

وعلى هذا النحو نشأت الديانات السماوية بواسطة الرسل الذين أرسلهم الله .. غير أن الطبيعة الإنسانية التي تنسى وتضل وتهوى ، وتميل وتنحدر .. نسجت قصصاً وخرافات نسبها الإنسان إلى الديانات ، وكانت الظواهر الكونية كالرعد والبرق والزلازل والفيضانات مفردات أولية لتكوين الخرافات والأساطير التي نسجها الإنسان بخياله عبر العصور محاولاً بها تفسير علة حدوث هذه الظواهر بشكل يرضاه ويعينه على التكيف معها ولم يكن متاح له غير ذلك في ظروف أو معطيات عصره البدائي .

هذا بالإضافة إلى الذين كانوا يفسرون بأهوائهم ما جاء في الأديان من قصص وتشريعات وخلافه ، وكذلك الجهلاء السذج الذين تعاونوا على تحريف الأديان بفهمهم الساذج السطحي لقضايا ومفاهيم الأديان ، بالإضافة إلى ما فعله أعداء الأديان من تحريف في الأديان عن قصد وتوجيه ولصالح مآربهم الخاصة .

ويوضح القرآن في بعض آياته كيفية تحريف الديانات أو الكتب السماوية

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ " سورة البقرة– الآية ٧٩ "

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ " سورة البقرة– الآية ١٤٦ "

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ " سورة آل عمران – الآية ٧١ "

﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ .. ﴾

" سورة النساء– الآية ٤٦ "

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

" سورة آل عمران –الآية ٧٨ "

وبتلك الأسباب وغيرها تم تحريف الديانات ، وأصبحت حافلة بالمتناقضات والاختلافات الجلية ، وجيلاً بعد جيل ، وطورا تلوطور ... انشقت منها معتقدات باطلة وأساطير تحكى لنا بجرأة ووقاحة قصص نشأة الكون ومعضلة الخلق ، وهى تصور الإله كأنه يقلد الإنسان أو الحيوان ، فعجزت أن تقدم عن الألوهية فكرة كاملة يرضاها العقل ويسكن إليها القلب تمثل الإله كأساس الموجودات وعلة العلل ونهاية النهايات .

وأصبح الناس في خلط دائم بين الدين والأسطورة أو الأسطورة والدين ومن ثم كانت حكمة بعث الرسل بالأديان لتصحيح مسار الشعوب كلما انحرفت تجاه الوثنية والأساطير والأديان المحرفة .

ولكن منذ أكثر من ١٤٠٠ عاماً– أي في أواخر القرن السادس ب.م – أراد الله أن يبدل هذه الحكمة بحكمة أخرى ..بأن يرسل محمداً " ﷺ" نبياً ورسولاً لجميع البشر و أن يكون خاتم الأنبياء والرسل ولذلك أنزل عليه خر الرسالات السماوية .. كتاباً محكماً ما فرط الله فيه من شيء ليهتدي به الناس جميعاً عبر العصور المختلفة .

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ " سورة الأنبياء – الآية ١٠٧ "

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾
" سورة المائدة – الآية ٣ "

وفى الحديث الشريف يقول " ﷺ" : (مثلى ومثل الأنبياء من قبلي ، كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا هذه اللبنة ، وأنا خاتم النبيين .)

" رواه مسلم "

وسوف نرى في احدى الأبواب التالية كيف أن من معجزة القرآن أنه يعيد كتابة نفسه بنفسه بالشكل الذي يتناسب مع ظروف ومقتضيات كل عصر، دون أن يبدل أو يصيبه آي تحريف .

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ ﴾ " سورة الحجر – الآية ٩ "

" إذا كانت فكرة الإله هي نتاج أحلام الناس كما يعتقد البعض . . . .
فيجب أن نسأل أنفسنا من أين أتى هذا الحلم المشترك رغم تعدد
واختلاف وانعزال الثقافات ؟!

وكيف نستطيع البحث عما لا نعرف ؟!

الأسطورة والإيمان

* قصة الكون في الأساطير ..
* الكفر جهل والإيمان تذكر ..!

قصة الكون في الأساطير ...

الأسطورة

ليست أفكاراً غير منطقية بل لها شكل منطقي خاص بها فلابد أن نميز بينها وبين الخرافة . صحيح أن الأسطورة تشترك مع الخرافة من حيث أنها نتاج الخيال ولكنها تختلف عن الخرافة من حيث إنها تقدم صورها وأبطالها الخياليين بهدف الكشف عن الأنت في الطبيعة ، وليست باعتبارهم مجرد أوهام . " [1] .

إن لكل ثقافة أسطورة عن العالم قبل الخلق ، وعن خلق العالم غالباً بتزاوج الآلهة أو بتفريغ البيضة الكونية .. وعموماً فإن الناس تصوروا بسذاجة أن الكون يقلد الإنسان أو الحيوان . ، ونقدم هنا على سبيل المثال بعض مقتطفات من هذه الأساطير وهى على مستويات مختلفة من التعقيد .

" في البدء تماماً كان كل شيء يستقر في ظلمة أبدية ، فالليل كان يخيم على كل شيء مثل دغل لا يخترق . "

أسطورة الأب الكبير لدى الشعب الأراندى – أستراليا الوسطى

" كل شيء كان عائماً وهادئاً وصامتاً ودون حركة وساكناً وكان متسع السماء فارغاً .

البوبول فوه لقبائل الكيشى ياما

" جلس ناآريان وحيداً في الفضاء كغيمة تعوم في اللاشيء ولم ينم لأنه لم يكن هناك نوم ولم يجع لأنه لم يكن هناك جوع بعد .. وهكذا فقد بقى فترة طويلة حتى خطرت بباله فكرة . وقال لنفسه : سأفعل شيئاً ما . "

أسطورة من مايانا – زائر جيلبرت

---

(١) إرنست كاسيرر ١٨٧٤ : ١٩٤٥ "

" في البدء كانت البيضة الكونية الكبيرة . وفى داخل البيضة كان هيولى ، وفى هيولى كان يعوم بان كو الجنين المقدس غير المتطور ثم خرج بان كو من البيضة وكان حجمه أكبر بأربع مرات من حجم آي إنسان حالي، وكانت في يديه مطرقة وأزميل وبهما صنع العالم .

أساطير بان كو – الصين (نحو القرن الثالث) .

" كان كل شئ غامضاً ولا شكل له قبل أن تأخذ السماء والأرض شكلاً . وقد اندفع ما كان واضحاً ومضيئاً ليصبح سماء بينما تجمد ما كان ثقيلاً ومضطرباً ليصبح أرضاً . وكان سهلاً جداً للمواد النقية والدقيقة أن يتحد بعضها بالبعض الآخر ، وصعباً جداً أن تتجمد المواد الثقيلة والمضطربة ولذا فقد اكتملت السماء أولاً ثم أخذت الأرض شكلها بعد ذلك ، عندما اتحدت السماء بالأرض في الفراغ وأصبح كل شئ في غاية البساطة ، ثم وجدت الأشياء وحدها وتلك هي الوحدانية ، ولكنها لم تلبث أن أصبحت مختلفة . " [1]

هواي – نان تسو – الصين (نحو القرن الأول قبل الميلاد)

" إن الإله الخالق الأول هو " أتوم ***Atum*** " الذي اتحد في هوية واحدة مع إله الشمس رع . "

وملخص هذه الأسطورة أن " أتوم ***Atum*** " الذي يعنى أسمه " الواحد الكامل " ظهر إلى الوجود بأن أوجد ذاته وخرج من عماء المياه الذي يسمى " نون ***Nun*** " ثم ظهر فوق تل . وأنجب بغير زواج عن طريق الإستنماء أو عن طريق السعال أو البصق الإله " شو ***Shu*** " والإلهة " تفنت ***Tefenet*** " (الرطوبة) وكان إله الهواء (شو) هو الذي زج بنفسه بين إلهة السماء " نوت ***Nut*** " وزوجها إله الأرض "جب ***Geb***"

---

(١) كتاب الكون – كارل ساجان

وبذلك فصل السماء عن الأرض . ، وأن بداية خلق الكون كانت انبثاق الأرض من الماء . ، وأن إله الأرض "جب *Geb* " مستلق على بطنه وقد نبتت المزروعات فوق ظهره . أما المرأة التي تنحني فوقه فهي زوجته " نوت *Nut* " إلهة السماء .

" أسطورة – هليوبوليس – مصرية قديمة " .

لم يكن هناك فيما سبق الخلق لا واقع (سات *Sat*) ولا غير واقع (أسات *Asat*) ولا انفصال بين السماء والأرض . ولم يكن ثمة سوى موجودات تسمى (أزوراز *Asuras*) مقسمة إلى فئتين : فئة يقودها (فارونا *Varuna*) وهم (الأديتاس *Adityas*) (الذي يعنى أسمهم الإنفتاق والتبرعم) ويشتبكون مع الفئة الأخرى (الدفافوس *Davavas*) (التي تعنى العبودية ، والقصور الذاتي) تحت قيادة (فريترا *Vritra*) (واسمه الذي يعنى الغطاء أو الغلاف ، يستدعى معنى مماثلاً .) وترتب (الأديتاس) لميلاد البطل (أندرا) من الأرض الأم والسماء الأب وتجعله ملكاً عليها . غير أن (إندرا) المتحصن بشراب " السوما " المسكر ، والمتسلح بالصواعق التي أعدها (تفشترى *Tvashtri*) – الصانع البارع – ذبح فريترا) وتمزق من بطن (فريترا) الممزقة سبعة جداول حبلى بجنين الشمس، وهكذا خرجت العناصر التي تدعم الحياة ، وهى الرطوبة والحرارة والنور ، ونشرت الأرض التي هي مستقر البشر ، أما السماء وهى عالم الآلهة ، فقد أصبحت مصانة ومقامة فوق الأرض . كذلك فصل (إندرا) نصف الكرة (*Sat*) والأرض والسماء عن نصفها الأخر (*Asat*) (العالم السفلي) وأقام النظام في العالم الأول ، وانحصرت الشياطين في العالم السفلي حيث العماء والغوضى . وتحددت وظائف(الأديتاس *Adityas*) .

وراح (فارونا) يراقب النظام الكوني من عل .

" أسطورة " أندرا وفريترا " – الهند "

" الروح الكوني تشكل في الوجود الإنساني ، لكن خاف الوحدة والعزلة فمزق نفسه قطعتين ، قطعة تحولت إلى امرأة فكانت زوجته ، وقطعة بقيت كما هي .. وهكذا بدأ تسلسل خلق الإنسان . "

" أسطورة هندية "

" الإنسان الأول كان رجلاً هائلاً ضحى بنفسه وجسده على مذبحة الآلهة فحول جسده ذرات صغيرة عادت جزيئاتها تتحد ومنها تكونت الأرض وكل ما يحيط بها . "

" أسطورة هندية "

" الزمان دائري . فالكون يطرأ عليه النمو والانهيار أو الكون والفساد أو الدمار ، وإعادة الخلق على نحو لا نهاية له . "

بداية الهندوسية – مثل قوانين " مانو " – الهند

ذكر " كارل ساجان " عالم الفلك الأمريكي نقلاً عن الأساطير الهندية . أن هناك فكرة عميقة وجذابة في أن الكون ليس سوى حلم الإله الذي حل نفسه بعد مائة سنة براهمية إلى نوم دون أحلام . وقد انحل الكون معه لفترة قرن براهمى آخر ، استفاق الإله بعده وأعاد تركيب نفسه ثم بدأ ثانية يحلم بالحلم الكوني الكبير . وفى الوقت ذاته وجد في أماكن أخرى عدد لا نهائي من الأكوان الأخرى . وكان لكل منها إلهه الخاص الذي يحلم بالحلم الكوني .

وقد لطفت هذه الأفكار العظيمة لدى تلك الشعوب بفكرة أخرى ربما كانت أعظم منها تقول إن الناس ربما لم يكونوا نتاجاً لأحلام الآلهة ، بل

إن الآلهة هم نتاج لأحلام الناس .

يوجد في الهند آلهة عديدة ، ولكل منها تجلياته المختلفة . فبرونزيات كولا التي صنعت في القرن الحادي عشر تشمل الكثير من أعمال التجسيد المختلفة للإله (شيفا *Shiva*) ومنها تمثيل خلق الكون في بداية كل دورة كونية ، وهو موضوع معروف برقص شيفا الكوني . وللإله المسمى في هذه الصورة بـ " ناتاراجا " أي ملك الرقص ، أربع أيد ، وفي اليد اليمنى العلوية يوجد طبل ذو صوت هو صوت الخلق ، وفى اليد اليسرى العلوية يوجد لسان من اللهب ، يذكر أن الكون الذي خلق الآن مجدداً سوف يدمر كلياً بعد مليارات السنين من الآن .

تعزى هذه الأساطير إلى تساؤلات كثيرة وعويصة .. لماذا تتحد خواطر الشعوب رغم اختلاف ثقافاتهم على حتمية أن للكون خالقاً ؟ ... لماذا تعلو نفوسهم حتى يدركوا أنه لا بد من إله يحثهم على الخير والأخلاق والمبادئ ؟ ... من الذي فطرهم على أن للكون خالقاً وأن للكون بداية ونهاية ، وأن هناك عالماً أخر ؟ .. فقبل ألف سنة من محاولة الأوربيين التخلص من الفكرة التوراتية القائلة إنْ عمر العالم هو بضعة آلاف سنة فقط، كان المايانيون يفكرون بالملايين ، بينما فكر الهنود بالمليارات .

أجمل ما في هذه الأساطير على رغم ما تحمله من مبالغة وشطط وتعدد الآلهة في معظمها ، هو إرغامنا أن نتساءل ... ما هذا الشيء الذي يوجد في وعي وعقول وقلوب وفطرة البشر ، ويجعلهم يملكون شعورا مشتركاً –رغم اختلاف ثقافتهم وأجناسهم– أن للكون خالقا ..

وإذا كانت الآلهة هي نتاج أحلام الناس ، فمن أين أتى هذا الحلم

المشترك !؟ ألم تثر تلك التساؤلات ثائرتنا ؟

لابد وحتماً أن هناك سراً عظيما مختبئا بين ضلوع وفى خلايا البشر .. مثلما هو مختبئ في براءة الأطفال ، وذرات التراب ، وقطرات الماء وحمم البراكين وأوتاد الجبال ، وانفتاق الأرض عن السماء ، وفي ذرات الكون وجميع المخلوقات .

لابد وحتماً أن هذا السر العظيم وراءه إله خالق إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون .

إن الأساطير وما فيها من شعور مشترك بين الأجناس البشرية المختلفة لدليل قاطع على أنها تحورت عن الأديان ، وأن الدين وفكرة الله وجدت مع الإنسان الأول .

فالأساطير ليست باستطاعتها أن تهدي شعوبها إلى الخالق ، بينما الخالق وحده هو القادر سبحانه أن يرشد إليه خلقه .

الكفر جهل والإيمان تذكر

من أين أتى هذا الحلم المشترك ؟

كم | هو عظيم فكر المصريين القدماء الذي كان يحكمه مبدأ أساسي هو " كل ما يؤثر في الفكر له وجود " .

إن جميع الحضارات المختلفة عبر العصور تناولت بالبحث فكرة الإله ، وإذا كانت فكرة الإله هي نتاج أحلام الناس كما يعتقد البعض فيجب أن نسأل أنفسنا .

من أين أو كيف أتى هذا الحلم المشترك !؟ وكيف نستطيع أن نبحث عما لا نعرف !؟

نحن جميعاً نعرف . إذا أرادنا أن نبحث عن شيء ما يلزم أن يكون لدينا معطيات أولية بموضوع البحث ، وحتى الموضوعات التي تم اكتشافها بالصدفة فإن أصحابها كانوا على علم بمعطيات أولية ولكنها كانت ذائبة في علمهم أو أفكارهم ثم تبلورت وظهرت عندما تلاءمت مع موضوع الاكتشاف ، وإلا ما كان هناك فرق بين العالم والجاهل ، ولكان جميع البشر مكتشفين .

إذن لا محيص من الرضا بفكرة أن هناك معطيات أولية أرسلها ا لله مع أول إنسان تمثل الرسالة أو الديانة الأولى التي تعرفنا با لله ، وتخبرنا بقصة الكون وترسم لنا ماهية الحياة .

وعندما أصاب التحريف الرسالة الأولى ... أرسل ا لله رسالة أخرى ترشد الناس للطريق المستقيم ، وهكذا كلما أصاب

التحريف رسالة أرسل ا لله رسالة أخرى تذكرنا بالرسالة الأولى ، وتبعث فينا الذكرى الأولية التي عشناها عندما كنا ذرات في جسد آدم عليه السلام وهو يتلقى التعاليم من ا لله .

إن فكرة ا لله فطرية رغم أن كثير من الناس لا يؤمنون بوجود ا لله. والفطرة غير مرتبطة بالجهل أو المعرفة أو الإدراك أو الفحص فهي تسبق كل هذا .. أما عندما نملك أفكاراً عن الأشياء وندرك التلازم بينها ونسعى للفحص ، فإن ذلك ربما يبعدنا عن الفطرة وربما يؤكد لنا فطرتنا .. ويتحدد ذلك تبعاً لطبيعة الأفكار ومدى قيمتها بالإضافة إلى فجور النفس أو تقواها.

إن الناس جميعاً لديهم معطيات كافية عن حقيقة وجود ا لله ، إلا أنها ذائبة أو تائهة في أعماق بعضهم ، ولا طاقة لهذه المعطيات على التبلور أو الاستقرار ، طالما أن أصحابها يولون أفكارهم شطر أهوائهم وشياطينهم .فإذا كان أفلاطون قد قال " إن الرذيلة جهل والفضيلة تذكر " فهل لنا أن نقول اليوم " إن الكفر جهل والإيمان تذكر " .

فالكفر هو جهل الإنسان بالذكرى الأولى التي عاشها عندما كان ذرات في جسد أبيه آدم وهو يتلقى التعاليم من ربه .

أما الإيمان : فهو تذكر تلك الذكرى الأولى أو تلك اللحظة الساحرة .

" كل شيء في الجنة ممتع وجميل ..... رائع وناضج ومعتدل ...
ملائكة من نور .. أنهار تجري ... أشجار نضرة .. طيور تغنى ،
وتطير في سماء صافية ... شمس مشرقة رقيقة .. مياه عذبة ..
كل شيء فى الجنة يسر العين ويطرب الأذن ويبهج القلب ...
ولذا أحب آدم الجنة وتمنى الخلود .."

" أيها الإنسان .... إذا كنت لا تؤمن بالحياة الأخرى
فقل سبباً واحداً تعيش من أجله !"

رغبتنا الجامحة للخلود .....

دعوة للإيمان بدار الآخرة

رغبتنا الجامحة للخلود ...
دعوة للإيمان بدار الآخرة

نحن البشر نسعى دائماً بوعي أو بدون وعى إلى حفر أسمائنا على جدران الأماكن الأثرية أو على ساق شجرة عتيقة شاهقة أو على صفحات التاريخ من خلال أعمالنا المتميزة الفنية والأدبية ....

وقديماً احتفظ القدماء المصريون بجثث الموتى بواسطة التحنيط ، لإيمانهم الملح بوجود الآخرة ، واليوم تحتفظ أمريكا بجثث الموتى بواسطة التبريد ، وذلك بوضع الجثث في أنابيب النيتروجين المسال على أمل أن يتقدم العلم لدرجة يستطيعون بها إعادة الحياة في الجثث مرة أخرى .

والسؤال الذي يدفع نفسه الآن هل هذه الأنواع المختلفة من الخلود المعنوي أو الجسدي فقط تكفى لكبح رغبينا في الخلود . ؟

فما هذا الشيء الذي يثير بداخلنا دائماً حب الخلود ؟

إن تلقائيتنا في حب الخلود ليست وليدة العهود الحديثة ولكنها كانت منذ خلق آدم ، وما خرج آدم من الجنة إلا بسبب حبة لها ورغبته للخلود فيها ، مما دعاه ذلك لمعصية ربه .

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ

ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ " سورة طه "

إن آدم في الجنة لم يكن يعرف المتناقضات .. وكان يعرف الراحة ولا يعرف الشقاء ، يعرف الأشجار والثمار ، ولا يعرف الزراعة ، يعرف الشبع ولا يعرف الجوع ، يعرف الارتواء ولا يعرف الظمأ ، يعرف دفء الشمس ولا يعرف حرها أو بعدها ، يعرف الجنة ولا يعرف الأرض المقفرة الجرداء، يعرف الجمال ولا يعرف القبح ، يعرف الكساء ولا يعرف العرى . يعرف حواء ولا يعرف الشهوة ، التناقض الوحيد الذي كان يعرفه هو الملائكة الأطهار الطائعين ، وإبليس العاصي .

وبعد أن هبط آدم إلى الأرض وفقد قوانين الجنة وعرف المتناقضات، وعلم أن الدنيا وسيلة لا غاية ، وسيلة ينتقل بها من دار الفناء (الدنيا) إلى دار الخلود (الآخرة) .وأن قوانين الأرض غير قوانين الجنة فهي تحتاج إلى أسباب .

إن رغبة آدم المتوترة للخلود أضعفت إيمانه فعصى ربه . وخرج من الجنة . أما رغبته الهادئة المستقرة الواعية بعد أن تعلم الدرس جعلته يعيش في الأرض في كدح وقناعة فعاش متاع الدنيا بلا غرور في حدود أوامر الله ونواهيه .

أراد آدم الخلود فى الجنة ، ولكنه عندما هبط إلى الأرض لم تكن لديه الرغبة للخلود في الأرض ، فكيف يرغب فيما هو أدنى من الجنة .. إن آدم رأى الجنة بل عاش فيها .. ورغم أن عقولنا لا تقبل بارتياح أي شكل للخلود سوى الخلود الجسدي والروحي في دار الآخرة ، إلا أننا كثيراً ما نرغب في أن نعيش أو نمارس رغبة آدم للخلود بطريقة عكسية ، وهى رغبتنا للخلود في الأرض ، رغم أنها أدنى من الجنة هذا بالإضافة إلى إدراكنا استحالة ذلك .

﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ " سورة الأعلى – الآية ١٧ "

فالدنيا فانية والآخرة باقية فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى ؟
وكيف يهتم بدار الغرور ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلود ؟

قرأ ابن مسعود هذه الآية فقال لأصحابه : أتدرون لم أثرنا الحياة الدنيا على الآخرة ؟ قالوا : لا ، قال : لأن الدنيا أحضرت وعجلت لنا بطعامها وشرابها . ونسائها ، ولذاتها ، وبهجتها ، وإن الآخرة غيبت وزويت عنا ، فأحببنا العاجل ، وتركنا الآجل .[1]

قال أبو ذر : سألت رسول الله " ﷺ" عن صحف موسى ما كانت؟ قال : كانت عبراً كلها (عجبت لمن أيقن الموت كيف يفر! عجبت لمن أيقن النار كيف يضحك ! عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ! عجبت لمن أيقن بالقدر ثم ينصب ! عجبت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل !).

وما يثير العجب أن آدم لم يرى في الجنة إنساناً يموت قط ، ورغم ذلك كانت فطرته تحثه على حب الخلود .

وما نحن البشر إلا ورثة أبينا آدم ، ورغبتنا للخلود ما هي إلا سر من أسرار الخالق ، وفطرة فطرنا عليها ، لتكون دليلاً مادياً على وجود دار الآخرة والخلود فيها .. تلك الرغبة التي ستتحقق لا شك في وقت ما ، ومكان ما لا يعلمهما إلا الله .

إن رغبة الخلود المتوترة داخلنا آية من آيات الله ودليل قوى للإيمان بدار الآخرة ، ولكنها عندما تستمر في توترها وتجعلنا نبحث عن أشكال أخرى للخلود -غير الحياة الأخرى في دار الآخرة - فإن ذلك يدل على ضعف إيماننا ، وإذا قادتنا للانتحار حيث لا فائدة من الحياة طالما نهايتها الموت . فإن ذلك يدل على كفرنا . أما إذا قادتنا رغبة الخلود إلى الإيمان بالله وطاعة أوامره وعمل الصالحات ، فإننا عندئذ نستمد سعادتنا من نور الله سبحانه فنشعر بالاستقرار ، والراحة . والطمأنينة ، ونفوز بالحياتين .. حياة الدنيا وحياة الآخرة .

(إذا وجدت رجلاً عاقلاً في زمنه زعيماً في التفكير ،
أكثر تفوقاً منك ، فاثن ذراعيك واحن ظهرك .)

من وصايـــا "بتاح حتب"

المصـــري القديـــم

الفلسفة سابقة على ميلاد العلم ..

* قصه الكـون فـي الفلسفـــة .
* العقــل قديماً أم العقل حديثاً .
* كيف يستلهم العقل الحقائق ؟
* المذهـــب المثالي .
* المذهـــب المادي .

قصة الكــون في الفلسفــة

جاءت الفلسفة تثير باستمرار في جدل فكرى قضايا نشأة الكون وعلة وجوده ، وفكرة الإله ، وشهدت كل العصور نقاشاً مستمراً حول حقيقة المادة والإنسان .. ونشأت الصراعات ..ليس فقط بين المذاهب المختلفة بل أيضاً بين آراء وأفكار المذهب الواحد ، ولكن أشهر تلك الصراعات ، هو ذلك الصراع الذي نشأ بين المذهب المثالي والمذهب المادي – المذهب المثالي الذي تبلور على يد أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ق.م) الذي يقول بأن " الفكرة وحدها هي الحقيقة بينما العالم المحسوس وهم ." ، والمذهب المادي الذي لا يعترف إلا بالمادة أو بالعالم المحسوس فقط .

والفلسفة وجدت قبل العلم بتقنياته وأدواته المعِينة حيث إن الفلسفة كانت السبيل الوحيد المتاح للبحث عن الحقيقة من خلال أدواتها التي تتمثل في النظر ، والتأمل ، وإعمال العقل ... ورغم أن الفلسفة هي البحث عن الحقيقة ، ورغم أنها استطاعت أن تقدم غذاء مقبولاً نوعاً ما لدى العقل، وإجابات منطقية لتساؤلاته إلا أنه بسبب كبرياء العقل وغرور الفلسفة وأهواء أصحابها ، تحولت بعض القضايا المثارة بهذا النوع من الفلسفة من المعقد إلى الأعقد ومن الفوقية إلى الدونية ، ومن شبه المفهوم إلى المبهم ... فسارت بالإنسان إلى ميدان متشعب الطرق يؤدى كل طريق منها إلى السقوط أو الوقوف على حافة الهاوية .

في المرحلة الأولى من التاريخ الفلسفي اليوناني –والتي يطلق عليها عصر الطبيعيين الأوائل – اهتم الفلاسفة بالنظر في الوجود الطبيعي للبحث عن أصوله الأولى وعلله ، وكان يغلب عليهم الطابع المادي ، ثم ظهر

بعد ذلك سقراط وأفلاطون وأرسطو وقاوموا النزعة المادية فى تفسير الوجود .. ولأننا لسنا بصدد دراسة خاصة عن آراء الفلاسفة القدامى عن خلق الكون سوف نذكر أمثلة بسيطة لبعض هؤلاء الفلاسفة .. ثم نتناول - بشكل بسيط - بعد ذلك تطور كل من المذهب المثالي ، والمذهب المادي .

تفسير الوجود عند أصحاب المذهب المادي لفلاسفة اليونان القدماء :

قال طاليس " ٦٢٤-٥٤٦ق.م " : بأن الماء هو المادة الأولى والجوهر الأوحد الذي تتكون منه الأشياء .

وأشار أرسطو إلى أن طاليس قال : بأن العالم حافل بالآلهة ويغلب أن يكون حافلا بالنفوس .. أي أن كل فعل إنما هو من النفس ، وأن النفس منبثة في العالم أجمع فتكون المادة الحية ، ولكن الماء المؤلفة من الأشياء حاصلاً على قوة حيوية فيه دائماً وإن لم تظهر دائماً .

أما " أنكسمندريس " " ٦١٠-٥٤٧ق.م " فقد دعا المادة الأولى باللامتناهي وقال أنها لا متناهية بمعنيين : الأول .. من حيث الكيف (أي لا معِينة) ، والثاني من حيث الكم (أي لا محدودة) . بل هي مزيج من الأضداد جميعاً كالحار والبارد ، واليابس والرطب وغيرها .. إلا أن هذه الأضداد كانت في البدء مختلطة متعادلة غير موجودة بالفصل من حيث هي كذلك ، انفصلت بحركة المادة ومازالت الحركة تفصل بعضها عن بعض ، وتجمع بعضها من بعض بمقادير متفاوتة حتى تألفت بهذا الاجتماع والانفصال الأجسام الطبيعية على اختلافها . فالحركة إذن تفصل أو تجمع بين الأضداد في الأشياء الطبيعية .. وهى حركة لا متناهية أو متطورة .. فالتطور قانون عام .. تخرج الأشياء من اللامتناهي ثم تنحل وتعود إليه ..

ويتكرر الدور وهلم دواليك .

إن أنكسمندريس يفسر الأشياء تفسيراً آلياً .. أي بمجرد اجتماع عناصر مادية وافتراقها يتم تكوين الأشياء بتأثير الحركة دون علة فاعلة متمايزة ودون غائية .

ولم يختلف أنكسيمانس (٥٨٨-٥٢٤ق.م) كثيراً عن أستاذه أنكسمندريس إلا إنه استعاض الهواء بدلاً عن اللامتناهي ، فقال : بأن الجوهر الأول واحد لا نهائي ولكنه محدد الكيف .. إنه الهواء ، به نشأت الأشياء الموجودة، والتي كانت وسوف تكون ، ومنه أيضاً نشأت الآلهة وكل ما هو إلهي ، وتفرعت باقي الأشياء .

أما هيراقليطس (٥٤٠-٤٧٥ق.م) قال بأن النار المبدأ الأول الذي تصدر عنه الأشياء وترجع إليه - لا النار التي ندركها بالحواس بل نار إلهية لطيفة للغاية أثيرية ، نسمة حارة حية عاقلة أزلية أبدية هي حياة العالم وقانونه أو " اللوغوس " يعتبر بها وهن فتصير ناراً محسوسة ، وتكاثف بعض النار فيصير بحراً ، ويتكاثف بعض البحر فيصير أرضاً ، وترتفع من الأرض والبحر أبخرة رطبة تتراكم سحباً فتلتهب وتنقدح منها البروق ، وتعود ناراً أو تنطفئ هذه السحب فتكون العاصفة ، وتعود النار إلى البحر . ويرجع الدور، فالتغير يجري أبدا في طريقين متعارضين : طريق إلى أسفل وطريق إلى أعلى . مع بقاء كمية المادة الأولى أو النار واحدة . ومن تقابل هذين التيارين يتولد النبات والحيوان على وجه الأرض غير أن النار تخلص شيئاً فشيئاً مما تحولت إليه ، فيأتي وقت لا يبقى فيه سوى النار . وهذا هو الدور التام أو السنة الكبرى .

أما إذا تعرضنا لآراء أصحاب المذهب غير المادي (الميتافيزيقى) عند فلاسفة اليونان الذين قاموا المذهب المادي ، فنجد على سبيل المثال أفلاطون قال في محاورة تيماوس : " كل ما يحدث فهو يحدث بالضرورة عن علة والعالم حادث قد بدا من طرف أول لأنه محسوس وكل ماهو محسوس فهو خاضع للتغيير والحدوث وله صانع .

فالعالم واحد لأن صانعه واحد ، ونموذج واحد ، وهو كل محدود ليس خارجه ما يؤثر فيه ويفسده ، وهو كروى لأن الدائرة أكمل الأشكال ، ومتجانس يدور على نفسه فى مكانه . ونفسه سابقة على الجسم صنعها الله من الجوهر الإلهى البسيط ، والجوهر الطبيعى المنقسم ومزاج من الإثنين ، فكان غلافاً مستديراً للعالم تحويه من كل جانب وتتحرك حركة دائرية ...."

العقل قديماً ...أم العقل حديثاً ؟

وبصرف النظر عن الأخطاء العلمية والأفكار الغريبة - التي لا تقبلها الأديان ولا يقبلها العالم الحديث - في هذه النظريات الفلسفية.. فإنها تثير دهشتنا بسبب ما توصل إليه العقل الإنساني المجرد - بدون أدوات معينة أو تجارب - إلى بعض الحقائق العلمية التي أثبتها العلم الحديث بتجاربه وأدواته المعينة .

وما يثير التساؤل أو التعجب هو أن العلم في بعض الأحيان كان يعيد فكر بعض الفلاسفة القدامى وإن كان هناك فرق إنما يتمثل في طريقة صياغة الفكرة تباعاً للمعطيات الفلسفية أو العلمية لكل عصر وكأن العلم والفلسفة يدوران بالإنسان في دائرة مغلقة فيجد نفسه في رحلته العلمية والفلسفية ينتهي من حيث بدأ ، ويبدأ من حيث أنتهي . فنجد على سبيل المثال أن " هيلم هولنز ١٨٢١-١٨٩٤م " عندما ادعى أن العالم المادي بمثابة ماكينة وقال " أن الهدف النهائي لجميع العلوم الطبيعية هو تحويل نفسها إلى الميكانيكا "(١) . وبناء على ذلك فإن وجود الخالق أمر غير ضروري .. أعاد آراء الفيلسوف أنكسمندريس (٦١٠-٥٤٧ق.م) عندما فسر الأشياء تفسيراً آلياً .. أي بمجرد اجتماع عناصر مادية وافتراقها يتم تكوين الأشياء بتأثير الحركة دون عله فاعلية متمايزة ، ودون غائية .

---

(١) هذا الرأي الذي بناه هولنز على أسس علمية نيوتنية حيث توصل نيوتن " ١٦٤٢ - ١٧٢٧م " أن أوضاع الكون اللاحقة تتحدد تلقائيا في ضوء أوضاعه السابقة .

كما نجد أيضا أن هيراقليطس في جملته " مع بقاء كمية المادة الأولى أو النار واحدة " وما يسبقها من معطيات .. سبق العلم الحديث بخصوص قانون بقاء المادة وفنائها " أن المادة لا تخلق ولا تفنى من العدم ، وإنما تتحول منصورة إلى أخرى[1]

ويدفعنا المقام هنا إلى ذكر أمثلة أخرى توضح عظمة العقل الإنساني مثل الفيثاغورثيين " في القرن السادس ق.م" الذين توصلوا بالعقل المجرد إلى نظرية دوران الأرض حول نفسها ، ودوران الكواكب حول الشمس ، وأفلاطون الذي توصل إلى أن القمر يستمد نوره من الشمس ومن قبل أفلاطون نجد أن أنكسيمانس (٥٨٨-٥٢٤ق.م) توصل إلى نفس الحقيقية.، وديموقر يطس الذي رأى أن المادة مكونة من جسيمات غير قابلة للتجزئة (ذرات) ولم يتقبل أحد هذه الفكرة إلا بعد أكثر من ٢٠٠٠سنة .

وإذا كان العقل الإنساني يتميز بهذه العظمة منذ آلاف السنين ، فإن ذلك يدعونا إلى أن نعيد النظر تجاه كثير من القضايا مثل التطور ، وحقيقة المادة وأصل الكون . وأيديولوجية العقل أو الفكر . ومفهوم التفوق العقلي.

فإذا تأملنا العقل البشرى منذ آلاف السنين نجد أنه يتفوق في بعض الأحيان على العقول الحديثة بل ويتفوق في كثير من الأحيان عليها إذا ما وضعنا في الاعتبار الفرق بين تقنيات العصر القديم وتقنيات عصرنا الحديث.

---

(١) يرى البعض أن هذا القانون يشير إلى أزلية المادة . وهو بذلك يشارك الله في قضية الأزلية . وأن المادة بهذا القانون ليست في حاجة لموجد أو إله . ولكني أرى أن هذا القانون يعبر عن عجز الانسان في ايجاد المادة من العدم

وإذا كان الأمر كذلك فيجب علينا أن نتساءل هل العقل البشرى خارج دائرة التطور ، وإذا كان داخلها فلمَ لا نرى العقل الحديث يجارى العقل القديم في إبداعاته في العلم ، والفنون، والعمارة ... ؟ فلمْ يستطع الإنسان الحديث بكل تقنياته المذهلة أن يصل على سبيل المثال إلى كيفية تحنيط الموتى مثلما فعل المصري القديم ، وأعتقد أن المصري القديم قد توصل إلى أسرار التحنيط بواسطة عقله المجرد ، وأن دور التجريب كان بسيطاً للغاية لقلة التقنيات العلمية حين ذاك ، ورغم افتقاره لوسائل العلم الحديث التي تُعين على التجريب الواسع والدقيق إلا أنه استطاع بعقله المجرد إدراك أن طريقته في التحنيط سوف تحفظ الجثة من التحلل لآلاف السنين .

وبالإضافة إلى هذا المثال فإننا لا نجد بيننا الآن عباقرة في المجالات الفنية المختلفة مثل:شعر شيكسبير ، وموسيقى موتسارت،وتصوير ليوناردو. صحيح أننا أصحاب عصر الفضاء ..ولكننا اخترقنا الفضاء من خلال الصواريخ . والمركبات أي بواسطة المعمل ، والتجارب المادية .

بينما الإنسان قديماً اخترق الفضاء بالاستنباط العقلي المجرد .. إننا توصلنا بالإلهام العقلي إلى سفينة أو مركبة مادية تعِين حواسنا على اكتشاف حقيقة الكون ، فكانت هذه الحقيقة صدى لحواسنا ، أما الإنسان القديم بالإلهام العقلي صنع مركبة معنوية ليكتشف الكون بشكل غير مادي فلا عمل لحواسه .. فالعمل ، وكل العمل للعقل ، والعقل فقط .

ولذلك فإن الحقيقة التي توصل إليها كانت صدى للعقل ، أو للشعلة العلوية الكامنة فيه .. وهل هذا يدفعنا بالقول إلى أن الاستنباط بالوسائل الحسية عمل على تقهقر الاستنباط بالعقل المجرد كما يجعلنا نتساءل عن أيهما أفضل ؟ وكيف نقرنهما معا ؟

فالإنسان قديماً وهو واقف على الأرض ، وبدون أدوات معينة توصل إلى حقائق علمية كثيرة مثل : الفيثاغورثيون الذين توصلوا إلى نظرية دوران الأرض حول نفسها ، ودوران الكواكب حول الشمس، وكذلك أكسيمانس الذي توصل إلى أن القمر يستمد نوره من الشمس ...

أما نحن بأدواتنا المُعِينة ، وتقنياتنا العلمية الجبارة لم نقم إلا بإثبات صحة ما توصل إليه القدماء ، وذلك من خلال الحواس المدعمة بالعقل ، فإن الدور الذي نقوم به يتحدد في التأكد من صحة النظريات القديمة أو عدم صحتها ، والإضافات العلمية التي نضيفها إلى تلك الحقائق العلمية القديمة فرغم أهميتها إلا أنها إضافات هامشية أو فرعية أوتكميلية بل إننا لم نصل في بعض القضايا العلمية إلى الحد الذي وصل إليه القدماء مثل : تحنيط الموتى عند الفراعنة .

ومع ذلك فإن هذا الدور الذي نقوم به لا يستهان به فرغم أنه تكميلي إلا أنه ضروري ، ولا يحق لنا أن نتجاهل أنه السبب في حضارة الرفاهية التي نعيش فيها الآن .

كيف يستلهم العقل الحقائق ؟

ولكن ما أهمية هذه المقارنة التي بين العقل عند الإنسان القديم ، والعقل عند الإنسان الحديث ؟

إن الإجابة على هذا السؤال في غاية الأهمية ، فالهدف من هذه المقارنة هو الدعوة لإعادة البحث عن إجابات أو معطيات صادقة ، ومستقيمة ، وصحيحة عن مفهوم التطور ، وحقيقة الانتخاب الطبيعي ؟ وما أهمية الدور الذي يقوم به الانتخاب الطبيعي ؟ فهل التطور اهتم بالتنوع الكمّي على حساب الكيف الإبداعي ، بمعنى إذا كان قديماً كل عشرة أفراد فيهم ثلاثة عباقرة . وأربعة أذكياء ، وثلاثة عاديين ، فهل الدور الذي قام به الانتخاب الطبيعي يتحدد في أنه جعل كل عشرة أفراد فيهم فرد عبقري ، وثمانية أذكياء ، وفرد عادى ؟

وتلك المقارنة بين العقل قديماً ، والعقل حديثاً محاولة أيضا لإثارة العقل للبحث عن أسئلة أكثر تعقيداً ، وأشد أهمية .

كيف يستلهم العقل الحقائق المحيطة به ؟ وما الفكر ، وهل هناك اتصال بين العقل وقوة عاقلة خفية خارجية أخرى ؟

وإذا كان الإنسان أو العقل ابن المادة أو ابن الطبيعة والصدفة كما يعتقد علماء المادة . فهل المادة الصماء العمياء الموجودة في الكون والمكونة له يوجد فيها ما تقذفه من إلهام في العقل ؟ وإذا كان العقل يتكون من مادة صماء عمياء . وليس له علاقة بقوة عاقلة خفية خارجية .. فهل يستطيع العقل بمفرده أن يستلهم حقائق الكون ؟. وهل يستطيع عقل الطفل الرضيع

أن يدرك بمفرده القيام بمهارة ميكانيكية الرضاعة . رغم أنه لم يمر بتجارب مماثلة ، وليس لديه أفكار سابقة عنها ؟

وإذا كان عقل الإنسان يشبه إلى حد ما الكمبيوتر الذي نضع فيه البيانات . والمعلومات . والمعطيات ، وبناء عليه يقوم بأداء الأعمال الصعبة، والابتكار في حل المشكلات .

فمن عسانا الذي يضع المعلومات في العقل البشري ؟ ومن أول عقل بشري وضعت فيه المعطيات الأولى التي يكتشف بها أسرار ، وقوانين الكون فيسيطر عليها ويخضعها لمتطلباته ، ويحل بها مشكلاته ؟.

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا .. ﴾ " سورة البقرة – الآية ٣١ "

والآن لا أرى سوى العقل ساجداً خاشعاً لله ، وإماما لقلبي . وروحي . ومشاعري . وجسدي .

المذهب المثالي

المذهب المثالي منذ عهد أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ق.م)

ظهر

وبغض النظر عن التفاصيل الفنية ، ظل المذهب المثالي يقول بأن الحقيقة المطلقة للكون " روحية " في صورتها النهائية . وبكلمة أخرى " لا وجود للمناظر المحسوسة التي نشاهدها في الكون إلا في مخيلاتنا " .

والسؤال الذي كان يوجه باستمرار إلى المذهب المثالي : إذا كان للأشياء وجود في مخيلاتنا فحسب .. فلماذا تبقى وتوجد الأشياء عندما لا يراها أحد منا ؟!

ظل هذا السؤال مطروحاً بدون إجابة حتى ظهر المذهب المثالي بمفهومة الجديد في القرن الثامن عشر (١٦٨٥-١٧٥٣م) على يد " جورج بركلي " وقد أجاب بركلي على هذا السؤال قائلاً :
" إن الأشياء موجودة في مخيلة الله " .

ورغم أن " بركلي " قدم المذهب المثالي كدليل جديد على وجود الله ، إلا أنه يحاكي الأسطورة الهندية التي تقول " أن الكون ليس سوى حلم الإله".

توسع المذهب المثالي الجديد في عهد " كانت " (١٧٢٤-١٨٠٤م) فأصبح مدرسة فلسفية قائمة بذاتها ، وانبرى المفكرون في ألمانيا، وإنجلترا ، وفرنسا ، وأمريكا يدافعون عن هذا الفكر وينشرونه ، ولكن أصيب هذا الفكر بالنكسة في أعقاب الحرب العالمية الأولى .

المذهب المادي

والمذهب المادي بمدارسه الفكرية المختلفة ، يقول بأن كل موجودات العالم تتكون من المادة ولا وجود لها خارج المادة ، وأن الإنسان أيضاً لا يتكون من عنصري الروح والجسد ، بل هو يتكون من حقيقة واحدة تتمثل في جسده المادي فقط .

ونجد أول أثر لهذا الفكر لدى أبيقور (٣٤٢-٢٧٠ق.م) وكان أبيقور يقول : بأن الأشياء في تحليلها النهائي تتكون من أجزاء صغيرة لا تخضع للمشاهدة وقد قويت هذه النظرية في القرن الثامن عشر حين نشر " هولباخ" كتابه " نظام الطبيعة *system of Nature* – ١٧٧٠م"

وانقسمت المادية في القرن العشرين إلى فرعين رئيسين :

أولهما " المادية الجدلية – *Dialectical Materalism* " التي تعتبر الفلسفة الرسمية للعالم الشيوعي . وآخرهما ما يسمى " بالمذهب الطبيعي *"Physicalism"* .

إن الماديين يسلّمون بوجود العقل ولكنهم يرون إن العقل محض وظيفة *Function* من وظائف الجسد المادي ، ولا وجود للعقل خارج الجسد المادي .

وصراع المذهب المثالي ، والمادي قديم قدم الفكر البشرى ، والمذهب المثالي وإن لم يكن يدافع عن الدين ، إلا أنه يستغل الفكر الديني ، فلسفياً ، لأنه يقول بأن الحقيقة المطلقة غير مادية ، على غرار ما يقوله الدين. وعلى العكس من هذا أتاحت المادية الأرضية الفرصة للإلحاد لأنها

ترى أن لا وجود لشيء خارج العالم المحسوس .

وكان المذهب المادي يتجه في اتجاهين فكريين . أولهما أن الكون وجود مادي محض ولذلك لا يمكن الاعتراف بوجود غير مادي (كالله) بينما كان الاتجاه الفكري الآخر يقول : إن جميع الوقائع تحدث لأسباب مادية معروفة ، ولذلك لا ضرورة للاعتراف بالرب والقيوم .

إن الاتجاه الفكري الأول في المذهب المادي ينكر وجود ا لله وينفيه نفياً قاطعاً . وأما الاتجاه الفكري الثاني فهو لا ينكر وجوده ولكنه يقول : بأن النظام الكوني لا يحتاج إلى ا لله ، عقب ظهوره للوجود للمرة الأولى . وقد عبر " والتير ١٦٦٤-١٧٧٨م " عن هذا الرأي حين قال : إذا كان هناك من وجود لله فعلاقته بكوننا كعلاقة الساعة بصانعها . أما " هيوم " (١٧١١-١٧٧٦م) فقد رفض هذا الإله الميت الذي لا يفيد ، وقال : " لقد شاهدنا الساعات وهي تصنع ولكننا لم نشاهد الكون وهو يصنع ."[1]

---

(١) جزء من مقال " الإسلام في القرن ٢١ " وحيد الدين خان

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾

قرآن كريم .. الآيات (٢٤، ٢٥، ٢٦)

سورة إبراهيم

الفلاسفة بين الدين والأسطورة

وهوى النفس ..

الفلاسفة بين الدين والأسطورة وهوى النفس

رغم أن الفلاسفة بذلوا كل ما في وسعهم وفعلوا ما شاءت لهم عقولهم وثقافتهم وظروف ومقتضيات عصورهم ، إلا أن الفلسفة لم تلبِ دعاء الإنسانية الحائر في كشف النقاب عن كلِ ما يتعلق بأصل الكون ونهايته .

وأعتقد أن حكمة الفيلسوف تعود إلى أنه ينظر بعين إلى التاريخ ، وبأخرى في الكون ، وبعين العقل إلى الطبيعة الإنسانية ، وعندما يجتمع كل هذا في وعاء نفسه ، إما أن يمتزج مع فطرته فيكون مصباحاً مضيئاً يصلح ويرشد ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ . ﴾ " الآية ٢٤،٢٥ – سورة إبراهيم"

وإما أن يمتزج مع هواه (شيطانه) فيكون مصباحاً وهمياً يخرب ويضلل..

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ " الآية ٢٦ – سورة إبراهيم "

وقال الشاعر : كم عاقل عاقل .. أعيت مذاهبه .

والفيلسوف عندما تعلو فطرته تتفق حكمته مع الأديان وتسمو ، وعندما يعلو هواه تنحدر آراؤه إلى مستوى الأساطير والأفكار المضللة .

والفلسفة كثيراً ما تخبطت في الله والأديان ، وفى خلق العالم ونهايته، فمن الفلاسفة من تأثر بالأساطير والخرافات فأعاد إحياءها بصبغة فلسفية ، ومنهم من نظر إلى الأديان نظرة جزئية وسطحية فأخذ بظواهر النصوص الدينية مما أدى إلى سوء الفهم لها .

وهناك فلاسفة لم تر إلا قطاعا محددا من معتنقي الأديان ممن لهم عادات متخلفة وتقاليد بالية ، فتحسب أن ذلك هو الدين ، أو لم يروا سوى معتنقي الأديان الوضعية وطريقتهم الشاذة والمنفرة التي يؤدون بها شعائرهم

وهناك فلاسفة تأثرت بما فعلته الكنيسة في العصور الوسطى من ظلم، واستبداد ، وقتل للعلماء ، ومحاربة العلم ، فأصبحوا يشعرون بالعداء تجاه الأديان ، مرحبين بالمادية ، والإلحاد ، والعلم المزيف ، والخيال المريض .

ولتوضيح ما تقدم نعرض فيما يلي آراء بعض الفلاسفة ..
" الآلهة يؤلفون حكومة ملكية على رأسها تزوس ، وهم في صور بشرية ، إلا أن سائلا عجيباً يجري في عروقهم فيكفل لهم الخلود "

" هوميروس اليوناني "

" الدين الحق مطابقة الفكر الفردي للقانون الكلي ، ومعني وحدة الوجود أن شيئاً واحداً هو الموجود ، وما عداه مظاهر وظواهر "

" هرقليطس اليوناني "

" وجودنا عدم والوجود الأول حال فيه ، وطريقة الخلاص من العدم: الزهد والتفكير حتى يتم الاتحاد أو الحلول "

" جماعة البراهمة "

" الديانة هي تصور المجموعة العالمية بصورة الجماعة الإنسانية ، والشعور الديني : هو الشعور بتبعيتنا لمشيئات أخرى يركزها الإنسان البدائي في الكون "

" جويوه – كتابه اللادينية المستقبل "

" العالم مصادفة فيه الملاء والخلاء . والعقل صدى للحس ، والسعادة..

العلم بقانون الوجود والأخذ منه بما يلائم النفس "

" ديمـو قريطــــس "

" الأديـان وضعـت خـداعـاً "

" جماعة السوفسطائية "

" إن الفكر والضمير لا يؤثران في المادة بل يتأثران بها "

" ماركــــس "

" إن الحق لذاته والباطل لذاته حديث خرافة "

" الفلسفة البرجماتية العملية الأمريكية "

وهذا المذهب الأخير يفسر لنا السياسة الأمريكيـة .. تلك السياسـة المبنية على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة .

والوسيلة هنا كونها دنيئة ولا أخلاقية فهـذا لا يؤلم الضمـير الغربي أو الأمريكي .. طالما أنها جديرة بالوصول إلى الهدف ، فما الحق عندهـم إلا باطل إذا كان ضد مصلحتهم ، وما الباطل إلا حق إذا كان يتفق ومصلحتهم

ومن الفلاسفة من يعانى من عقدة العظمة ، ويؤمن بالتفرقة الطبقية ..

" إن الشرف وثنى روماني إقطاعي أرستقراطي ،أما الضمير فيهودي مسيحي برجوازي "

" فدريك نيتشه "

" إن بلاغة الأنبياء هي التي حورت الأخـلاق .. جعلـت الطبقـات الذليلة الخاضعة هي محور الفضيلة " .

" فدريك نيتشه "

إن آراء " فدريك نيتشه " تعلن بوضوح تام أنه ليس فقط ينظر للأديان نظرة خاطئة ، ويعانى من عقدة العظمة ، والتفرقة الطبقية بل إنه أيضاً صاحب أسوأ نفس مريضة و دنيئة .

" إن الرحمة ضرب من الشلل ، لأننا نفقد بها بعض قوتنا الشعورية نصرفها في مخلوقات مرقعة لا يرجى لها إصلاح ، وإن من الرحمة شيئاً من الغلظة والاعتداء ، فزيارتك لجارك المريض : هي نزعة استعلاء منك ترجو من ورائها أن ترى بعينيك عجز صديقك "

" فدريك نيتشه "

ومن الفلاسفة من يعانى من جماح الشهوة التي ليس لها حد وبالأحرى حدها هو الانتحار .

" الحرية والسعادة في التخلص من الشهوة باللذة الحاضرة التي ترضاها النفس ، أو بالتخلص من الحياة حتى لم يعد منها نفع "

" أرستبوس – من صغار السواقرطيين "

" غاية الحياة اللذة الجسمية .. أي المنفعة ." " أرستبوس "

ومن الفلاسفة من هو متشائم – يفتقد المعنى الجليل للحياة ، وفلسفتها الحقيقية .

" السعادة أمنية مستحيلة ، وطلب اللذة عبث ، لأن اللذة تخلّف الألم دائماً "

" جماعة القورنيائية "

إن هؤلاء الفلاسفة مثال سئ للنفس البشرية المريضة بالمرض العضال والتي تعانى شذوذا فكريا غير حميد .

فهم ليسوا إلا وعاءً قبيحاً يحوي كل أنواع القذارة ، والعفن ، والانحدار ، والدونية ، والنقصان ، والعصبية القومية ، والنزعة الأرستقراطية ، والطقوس الوثنية ، والأفكار الأسطورية ، والحماقة المذهبية ...

ولأن كل إناء ينضح بما فيه فإن وعاءهم ظل ينضح للبشرية علما زائفا رديئاً تعم به الفوضي وينحدر به الإنسان إلى درجة أدنى من الحيوانية، علماً أدى إلى التفكير الجامد المجرد المادي ، والمجتمع الآلي الذي يصب في الإنسان الوحدة والغربة والفناء ، وما يثير العجب أنه مازال حتى الآن من يتبعهم ويؤمن بأفكارهم .

وصدق قول " برتراندرسل " ، " هناك أساليب عديدة تجعل من اللغة في بعض الأحيان أداة مضللة وخداعة للتفكير ."

ويحثنا المقام الآن أن نتكلم عن فلاسفة ومفكرين تحثهم فطرتهم للإيمان بوجود إله لهذا الكون ، فتتفق أقوالهم مع الأديان وتسمو .

" الناس هم الذين يضيفون للإله أوصافاً من أوصافهم ، ولا يوجد إلا إله واحد خالق كما سواه " " أكسانوفان "

" كل شئ غير الله لا يشفي لنا غليلاً : " باسكال "

" الله هو الأصل والمرجع لكل حياة " " بيلوتان "

" الله هو الشمس الوحيدة التي تمد أشعتها الخالدة الموجودات "

" نوكاردين "

" اعتقاد الأفراد والنوع الإنساني بأسره في الخالق اعتقاداً اضطرارياً. فقد نشأ قبل حدوث البراهين الدالة على وجوده ، ومهما صعد الإنسان بذاكرته في تاريخ طفولته ، فلا يستطيع أن يجد الساعة التي حدثت

فيها عقيدته بالخالق ، تلك العقيدة التي نشأت صامتة ، وصار لها أكبر الآثار في حياته، فقد حدثت هذه العقيدة في أنفسنا ككل المدركات الرئيسية على غير علم منا ." " المسيويوشيف - في كتابه ..التذكرة في تاريخ البرهان على وجود الخالق "

" يوجد بين الأفكار التي توجد في ذاتي فكرة ا لله ، وهو اسم يطلق على جوهر غير متناه ، سرمدي ، غير متحرك ، مستقل ، قوى عاقل ، خالق كل شيء ، ولا يمكن أن تكون هذه الفكرة قد أوجدتها أنا ، لأن المحدود لا يمكن أن يوجد اللامحدود ، ولا يمكن أن تكون خاطئة لأنها واضحة وتميزه ، ولم يبقَ إلا أن أقر بأن فكرة ا لله قد ولدت معي تماماً كما هو الحال بالنسبة لفكرة ذاتي ، وأنا أدركها بالملكة ذاتها التي بها ذاتي أي بالفكر " .

" ديكارت - مقاله الطريقة "

" عظمة ا لله تبدو جلية واضحة في خلقه ، فالعين وجناح فراشة تكفيان لتسحقا الملحد ." " ويدرو "

" أن معرفة ا لله تتم بواسطة البرهان الاستدلالي انطلاقاً من معرفة أنفسنا ، فنحن نعرف بوضوح وتأكيد أننا نوجد وأننا شئ ما من الأشياء ، كما نعرف أن العدم لا يمكن أن يحدث كائنا حقيقياً . ومعنى ذلك أنه يوجد كائن أزلي أوجد هذا العالم وأوجدنا ، لأنه إذا كان محدثاً احتاج إلى محدث ، ويجب أن يكون قادراً عاقلاً لأننا قادرون وعاقلون ، ويجب أن يكون غير مادي لأن المادة لا تفكر ، أو لا تعقل . " " لوك " -١٦٣٢-١٧٠٤ "

" لم يتجارأ على إنكار الله غير الإنسان "

" شاتوبريان "

لمـــن أتحـــدث اليـــوم ..؟

إن الرجل الوادع يفنى .. وذو الوجه الجسور يذهب إلى

أي مكان .. إن ذا الوجه المسالم تعس .

لمـن أتحدث اليـوم ..؟

السرقة تمارس .. وكل رجل يأخذ عنوة سلع جاره .

لمـن أتحدث اليـوم ..؟

إن الرجل الذي يستند إليه المرء ، ليس لديه فهم .

لمـن أتحدث اليـوم ..؟

لا يوجد أخيار .. إن الأرض لأولئك الذين يرتكبون الإثم .

لمـن أتحدث اليـوم ..؟

يوجـــد نضـــوب في الأوفيــــاء .

لمـن أتحدث اليـوم ..؟

إن الشـــر يضـــرب فـــي الأرض ..

وليـــس لــه نهايـــة .

مقطع من قصيدة في برديات

المصري القديـــم

الآراء والأفكار بين

النظم الوضعية .. والنظم السماوية

الآراء والأفكار بين النظريات الوضعية والأديان السماوية

النظريات

الفلسفية بأنواعها : المثالية والواقعية والبراجماسية ، وجميع الأيديولوجيات ، والنظم الوضعية كالنظام الشيوعي ، والنظام الرأسمالي هي نتاج الفكر الإنساني ، محتوم عليها أن تكون قاصرة وناقصة مهما بلغت من الإيجابيات ، لأن ما بها من سلبيات يكفي بأن يجعلها في حالة تصدع أو انهيار .

في الأمس وقّع التاريخ على انهيار النظام الشيوعي ، الذي أثبت فشله كمشروع حضاري ، كما أن المشروع الرأسمالي يعيش الآن مرحلة التصدع ، ورغم كل ما قيل عن مثاليات أيديولوجياته التي أدت إلى حتمية سيادته بلا منافس ، لا يستطيع أحد أن ينكر اعتماد المشروع الرأسمالي على مبدأ "(الغاية) تبرر الوسيلة " ومنطق " أعمل ومر بلا حواجز " دون اعتبار لماهية الوسيلة كونها أخلاقية أو غير أخلاقية .. وما الحواجز في رأيهم سوى الأخلاق ، والقيم ، والمبادئ ، والأديان . ومن ثم ظهرت المشاكل الداخلية لأمريكا أو للنظام الرأسمالي وهي (الجريمة – المخدرات – التواكل – انحدار التعليم – سوء السلوك ......)

فالمشروع الرأسمالي الذي يفصل الدين والقيم عن الدولة جعل الإنسان الغربي فقيراً على المستوي الروحي نتيجة لافتقاده العقيدة ، كما جعله مريضاً بمرض الانحلال والسفور لمفهومه العبثي لمعنى الحرية ...

إن مساوئ المشروع الرأسمالي جعلته يقف الآن بقدم واحدة على حافة الهاوية .

أبدا لم يكن انتصار الرأسمالية على الشيوعية رمزاً لانتصار قوة الخير على قوة الشر ، وإنما هو انتصار شر قوى ماكر على شر أقل قوة وأضعف مكراً فوق حلبة العالم .. شاء القدر ألا يكون معهما منافس ثالث شريف .

فالواقع يعلن أن أي نظام وضعي غير صالح لأن يقود العالم إلى الحرية والرخاء، وأن يحقق له السلام مع العدل ، فالحضارات الوضعية قامت على باطل ، ومذابح الأخلاقيات ، والمبادئ ، والقيم ، وإن كان هذا لا يمنع وجود بعض الإيجابيات .

وعلى عكس المناهج الوضعية فإن المنهج السماوي كالإسلام منهج كامل وشامل فهو مبنى على أسس أخلاقية مثالية ، تراعى إنسانية الإنسان قبل أي اعتبار آخر من لون أو عرق أو فكر .. نتيجة ربانية مصادره وتوازنه الرائع .، ولذا قامت الحضارة الإسلامية على تقرير الأخلاقيات والمبادئ ، والقيم .

" إن الإسلام ليس مجرد عقيدة يعتقدها الإنسان أو خلق يتخلق به ، وإنما الإسلام نظام إنساني شامل وكامل ، يتناول حياة الفرد الروحية والعقيدية والخلقية والفكرية بنفس القدر الذي يتناول حياة المجتمع ، والفرد والسلطة ، بل أن الإسلام يقدم للإنسانية رؤية خاصة وفذة ، لتعامل الإنسان مع الكون المحيط به ، من كائنات ، ونبات وطير ، وأرض وسماء ، ويكشف للإنسان علاقته بالغيب المكنون ، كما يبين له طريقه في الحس المشهود ، وكما يضع الإسلام للمجتمع الإسلامي القواعد والأصول والأحكام التي يؤسس عليها نظمه السياسية والاقتصادية فهو يوضح لهذا المجتمع رسالته القويمة والرشيدة التي يتقدم بها إلى العالمين ، مجاهداً لإنقاذ البشرية من وهدة الشرك وظلمات الجاهلية–ولو تغلفت بالتقنية والعلم–، هاديا أياها إلى نور التوحيد ، أو حسب تعبير رجالات المشروع الحضاري الأول

إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ومن جور الأديان (والأنظمة الوضعية) إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة[1] " .

والتاريخ الإسلامي حافل بكثير من الحقائق المضيئة .. مما دعا السيد " توماس أرنولد " يقول " أن المسيحيين أحرزوا ثروات ضخمة ، وتمتعوا بنفوذ كبير في عصر الإسلام بفضل ما كفل لهم من حرية الملك والعقيدة ."

وأبسط مثال يقال عن مثالية الإسلام هو ما سجله التاريخ بمداد الفخار عن قصة اليهودي المعروفة مع على بن أبى طالب ، فقد تنازع " على " مع هذا اليهودي حتى بلغ الأمر إلى " عمر بن الخطاب " فلما مثلاً أمامه ، قال عمر لعلى : قف يا أبا الحسن ، فظهر الغضب في وجه " على " فقال له " عمر " : أكرهت أن نسوى بينك وبين خصمك في مجلس القضاء؟ فقال " على " :لا: ولكنى كرهت منك أن عظمتني في الخطاب ولم تصنع مع خصمي اليهودي ما صنعته معي من التعظيم في النداء.."

أين أي نظام من مثالية الإسلام .. ولنا أن نقول بكل الثقة أن الرفاهية التي يحققها نظام ما هي نتيجة حتمية لمثالياته التي نجد مثيلتها في الإسلام ، وأن سلبيات أو فشل نظام ما إنما يعود إلى مساوئ أفكاره ، والتي لا نجد مثيلها في الإسلام ..

فماذا غير الإسلام .. يبدد ظلام الظلم بنور العدل ، وخراب الحروب بسنابل السلم ، وتيه الانحلال والسفور والعبث باستقرار النفوس وتهذيب الأرواح واستلهام العقيدة .!

---

(١) جزء من مقال – جمال سلطان – مجلة الحرس الوطني – العدد ٧٤ نوفمبر ١٩٨٨ وبتصريف .

فالعالم بعد مادياته الطاغية قادم لا محالة باختياره التام إلى واحة الإسلام ، رغم قصورنا نحن المسلمين في الدعوة والتبليغ . وليس ببعيد أن يأخذ الإسلام مكانته العظيمة الطبيعية على يد معتنقيه الجدد .. لأن سلوكياتهم وطبائعهم تتفق -إلى حد كبير- مع تعاليم الإسلام ، ويقول الرسول ﷺ : " الناس معادن كالذهب والفضة .. خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا " ولأن إسلامهم سيقام على الاختيار الذي يثير الإصرار والعزيمة في النفوس ، ولن يقام على الموروث الزائف للعقيدة الداعي للتراخي ، والذي يحول العبادات الدينية إلى عادة آلية فتنفصل العبادة عن العمل ، فتصبح العبادة شيئا ، والممارسات العملية الحياتية شيئاً آخر ، حيث لا يراعى فيها تقوى الله ، فكثيرا ما نرى من يقيم الصلاة ، ويؤدى العبادات ثم عندما يخرج للممارسات الحياتية يستحل لنفسه غش الناس دون اعتبار للمبادئ الإسلامية سواء بوعي أو بدون وعى، وكأنه يطبق فلسفة " اعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ، "[1] .، يجب أن تثار ثائرتنا لنغير ما بأنفسنا من تقاليد زائفة ، وعادات بالية سيئة ، وعبادة آلية، ومعتقدات وبدع خاطئة، وخلافات تصادمية ، ليغير الله ما بأمتنا من تخلف، وتبعية ، وذل ، وهوان.

فإذا كانت الأنظمة الوضعية تسقط نتيجة مساوئ مبادئها ، وقصورها ، وافتقارها للسبل المعينة على النجاح والاستمرار ، فإن الحضارة الإسلامية سقطت نتيجة ابتعاد المسلمين عن التعاليم ، والنظم ، والمثاليات الإسلامية .

---

(١) ذهب مجموعة من اليهود يسألون السيد المسيح : أيها المعلم إننا نعلم أنك صادق ، فقل لنا أيجوز أن نعطى جزية لقيصر أم لا ؟ فقال لهم : اعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله .

الإسلام ليس بحاجة إلينا كمحامين ندافع عنه بقدر احتياجنا نحن إليه ليرفع من مكانتنا .. فجاذبية الإسلام ذاتية ، وقادرة وحدها أن تجذب إليه العالم أجمع .

إن القضية ليست قضية بيد مَنْ ، وأين يتم بعث الحضارة الإسلامية ؟ وإنما القضية هي متى يستطيع المسلمون فتح أوراق التاريخ ليسجلوا فيها بعث الحضارة الإسلامية بمثاليتها التي ليس لها مثيل .

فالقضية لا تكمن في الجغرافيا ، أو المكان ، أو أين ، وإنما تكمن في الزمن ، أو التاريخ ، أو متى .

والآن يجب أن نتساءل بتساؤلات يفرضها واقع العالم المستبد الطاغي، وواقعنا المخزي المهين ..

هل سيطوى التاريخ أوراقه ليعيش العالم بلا حضارات ؟

هل سيفتح التاريخ أوراقه لحضارة أكثر استبدادا وأشد ظلماً ؟

هل ينتظر التاريخ بعث الحضارة الإسلامية من مرقدها بمقومات عصرية جديدة ، ليشاهد العالم مرة أخرى نظاماً دليله الرحمة وسلطانه الحكمة ؟

ترى .. في أي اتجاه نحن تساعد التاريخ ؟!

(إن المادة أصبحت مشابهـة جداً للأشبـــاح
فلم تعـــد عصـا مناسبـة لضرب العقـــل)

" برتراندرسل "

المـــــادية العلميـــة في تفسيـــر العلوم الطبيعيـــة

المادية العلمية في تفسير العلوم الطبيعية

ظلت الفلسفة السبيل الوحيد المتاح للبحث عن حقيقة الكون وظواهره الطبيعية زمنا طويلاً حتى ظهرت المادية العلمية بيقينياتها، وظنياتها ، والتي كانت سببا في انهيار آراء ومذاهب الفلاسفة التي كانت تتعارض معها .
وكانت أيضاً من عوامل تأييد لآراء الفلاسفة التي كانت تتفق معها .

وبالنسبة لمحاولات الربط قديماً بين العلم والأديان فلم تكن لصالح الأديان ، لأن الإنسان لم ينتبه إلى أنه يقيس الأديان بالعلم الظني في كثير من الأحيان ، فعندما تتنافى آية واحدة مع العلم -ولو ظني - فإن ذلك يدعو إلى الشك في مصدقية الدين ككل ، وعندما أدرك الإنسان في عصرنا الحالي.. أنه لا يجب أن يقيس بالعلم الظني المعطيات الدينية ، وأن القياس لا يكون إلا بالعلم اليقيني هبطت الأديان لتعارضها معه ، ولم يستثن من هذا الهبوط إلا القرآن لاتفاقه معه أو بالأحرى لاتفاق العلم اليقيني مع القرآن ، ولكن قبل هذا الاتفاق كان العلم الظني يؤرجح كافة الأديان بما فيها الإسلام في نفوس معتنقيها . ورغم أنه علم ظني إلا أن بعض العقول البشرية تأثرت به فدفعها إلى الإلحاد .

فأثناء مسيرة العلم كان منطقياً أن يضل العلم الطريق بظنياته مثلما كان منطقياً لهذه الظنيات أن تضلل البشر ، وأن تضل العقول بظنون العقول

"فإذا كان سقراط وأفلاطون وأرسطو قاوموا النزعة المادية فى تفسير الوجود فقد اضطلع بالعمل على احيائها بعدهم - فى العصر المدرسى-

كل من " أبيقور ٢٧٠ ق . م " والشاعر الروماني " لوكربتيوس " لكن الفضل في تشكيل هذا المذهب في صورته الشائعة يرجع الى " اسحق نيوتن ١٧٢٧ م " ، وان كان التفسير المادى للموجودات قد تطور مع تطور التفكير العلمي ، وأن رأى حيرتهم أن العقل صورة من صور المادة التي تتميز بالقوة والتنوع والحركة والحياة والتفكير فليس هناك شيء اسمه الروح أو العقل مستقل عن المادة اذا حل فيها وهبها الحياة والحركة والفكر ، اذ ليست الظواهر الوجدانية الا وظائف لاعضاء الانسان .

فالتفكير وظيفة المخ - كما أن الذوق وظيفة اللسان - كما قال " تولند ١٧٢١ م " ، فبان المخ يفرز التفكير كما تفرز الكبد الصفراء وتهضم المعدة الغذاء .. فيما يقول " كارل فوجب ١٨٩٥ م " . وحاول " هارتلى ١٧٥٧م " أن يرد علم النفس الى علم وظائف الاعضاء اذ أن الانسان ليس الا مجموعة من الاعصاب ، كذلك وصف " مولبثوت ١٨٩٣ م " دورة الحياة بالمادة والطاقة ، وقرر " دى لا مترى ١٧٥١ م " فى كتابة الإنسان باعتباره آله - أن المادة تتحرك وتحس - والعقل علة هذه الحركة . وهو شيء مستقر في الجسم فهو متميز ومن ثم كان ماديا . والادراك ينشأ عن تركيب الاعضاء ويتأثر المزاج بالبيئة والغذاء والتربية - كما يتأثر الخلق بالمزاج وقد حارب " هلباخ ١٧٨٩ م " في كتابه " نظام الطبيعة " كل نظرية تزعم أن وراء الظواهر المحسوسة عالما أو موجودات غير مرئية . وليس العقل عنده الا الجسم منظورا اليه من ناحية بعض وظائفه وكل شيء فى الوجود يمكن تفسيره بالماده والحركة - وهما عنده أزليتان أبديتان تتحكم فيهما قوانين ضرورية ومن ثم ينتفى وجود النفس البشرية"[١]

---

(١) أسس الفلسفة - د. توفيق الطويل

ونجد أن الإنسان حين تقدمت به وسائل المشاهدة، ظن أنه يستطيع أن يشاهد كل شيء فأخذ يدعى أن لا وجود للأشياء التي لا تخضع لمشاهدة المنظار أو المجهر ، وبالتالي لا ضرورة للاعتراف بوجود غير مادي كالله وأن وجود الخالق أمر غير ضروري ، معللاً ذلك بما توصل إليه نيوتن بأن جميع أحوال الكون وأوضاعه معيَّنة ، ومحددة في كل لحظة ، وأن أوضاعه اللاحقة تتحدد تلقائياً في ضوء أوضاعه السابقة وأن العالم المادي بمثابة ماكينة كما أدعى " هيلم هولنز ١٨٢١-١٨٩٤م " .

" إن الهدف النهائي لجميع العلوم الطبيعية هو تحويل نفسها إلى الميكانيكا."

لقد ظلت هذه الادعاءات قائمة بقوة ابتداء من عهد نيوتن (١٦٤٢-١٧٢٧م حتى أينشتين (١٨٧٩-١٩٥٤م) لكن العلماء في عهد أينشتين قد فقدوا ثقتهم في هذه الادعاءات ، فاصبح الأمر مشكوكاً فيه عما إذا كان الكون موضوعيا "*Objective* " أم أنه ذاتي "*Subjective*" ، وبكلمه أخرى : هل لهذا الكون من وجود خارجي يمكن مشاهدته أم أنه لا يعدو أن يكون مظهراً لأحاسيسنا الداخلية ، فقد كانت الفكرة العلمية القديمة ترفض الاعتراف بالعقل والإحساس كوجود حقيقي ، وتقول إن العقل والإحساس ليس إلا نتاجاً إضافياً للمادة .

كانت المادة هي أكبر حقيقة في هذا الكون ، في رأى العلماء حتى القرن التاسع عشر . وكان البروفسيور تييت *Tiet* قد قال سنه ١٨٧٦م في محاضرته حول " بعض أوجه التقدم في العلوم الطبيعية " : " إن أكبر دليل على حقيقة المادة وموضوعيتها هو أن الإنسان لا يمتلك قوة تخلق المادة أو تفنيها " ولكن المادة قد تحطمت الآن وكانت نهاية هيروشيما تتمثل في إفناء المادة .

ولم تـأت نهاية القرن التاسع عشر إلا وكان " بلانك " " ١٨٥٨-١٩٤٧م" قدم نظرية " الكم " التي قضت على الفكر الميكانيكي ، وبدأت عهداً جديد في تاريخ الفكر العلمي .

وأغرب مفارقة وقعت في عالم العلم أنه حين وصل علم الطبيعة القائم على نظريات نيوتن إلى أوجه في القرن التاسع عشر ، وقعت تجارب ومشاهدات هزت أساس هذه النظريات ، ووقعت ثورة واسعة المدى في علم الطبيعة .

فتغيرت الأفكار الأساسية كالمادة ، والطاقة ، والذرة ، والموجة ، والجوهر ، والعنصر ، والزمان ، والمكان ، والعلة ، والمعلول ، وبرزت فكرة جديدة عن القوانين الطبيعية وهذه هي المتغيرات التي وضعت أساس علم الطبيعة الحديث على أنقاض علم نيوتن وماكسويل ، فأصبح علم الطبيعة الحديثة يقوم على أساس " الكم " ، والنسبة "[١] .

فما الحقيقة في ضوء العلم الحديث ؟ يشرح برتراندرسل موقف علم الطبيعة قائلاً : " إن عالم الطبيعة يثبت أنك لا تصطدم بأي شئ على الإطلاق عندما تشعر بأنك تصطدم بشيء ما ، بدرجة أن رأسك حين يصطدم بجدار من حجر فإنك لا تكون في حقيقة الأمر قد لمست ذلك الجدار، والذي يحدث في الحقيقة هو أن بروتونات وإلكترونات جسدك تدخل في عملية جذب ودفع مع إليكترونات وبروتونات الجسم المضاد .

ولكن لا يحدث لمس واتصال حقيقي بين الجسمين خلال هذا العمل . فالذي يحدث أنه حين تقترب إلكترونات وبروتونات جسدك بالكترونات وبروتونات جسم آخر يحدث نوع من الهيجان .

---

(١) جزء من مقال " الإسلام في القرن ٢١ " وبتصريف – وحيد الدين خان .

إن هـذا الاضطـراب والهيجـان تصـل إلى مخـك بواسـطة الأعصـاب . والإحساس المخي هو الذي يجعلك تشعر باللمس أو الاتصال بشيء ما "[1]

وهو يضيف قائلاً :" قد أصبح من الصعوبة بمكان إقامة الدليل علميـاً علـى وجـود شـيء مـادي خـارج عقولنـا ، فـالموجود هـو الرقـص المجنـون للإلكترونـات ، ولا يعـدو أن يكـون لإحساسـنا ، بـاللمس أو للتمـاثل بـين الأشياء، من وجود حقيقي " .

أما السير" آرثر أيدنجتن " فيرى أن هذا الاعتراف من علماء الطبيعة المحدثين " بأن علم الطبيعة لا يعطى ولو علماً جزئياً عن الحقائق الخارجية هـو إثبات للنظرية القائلة بأن العلوم المكتسبة من خلال الوسائل الطبيعية لا تعدو أن تكون ذاتية وغير موضوعية *"Subjective"* ".[2]

وقد تحدث " إيدنجتن " في مكان آخر يقول :

" كمـا أن الكلمـات لا تمثـل الأشياء ، بـل هـي علاقـات للأشـياء ، وعلى سبيل المثال فإن كلمة (الخبز) ليست عكساً أو تمثيلاً لصورة الخبز أو لونه أو رائحته ... فكذلك تصوراتنا عن الأشياء الخارجية لا تكـون تصويـراً تمثيلاً حقيقياً لتلك الأشياء ، بل هي " رموز " لتلـك الأشـياء ، مثـل أ – ب – ج في الرياضيـات والهندسـة وكذلـك يكـون الإلكـترون ، والـبروتون ، وغيرهما من الأسماء رموزا لعلم الطبيعة . والحقيقة أن حصيلة علم الطبيعة لم تعد الآن أكثر من رموز رياضية ومعادلات رياضية ، وعلم الطبيعـة لا يحفـل بالرد على الأسئلة الغامضة التي تثار حول الحقائق والأشياء التي تدل عليها

---

(1) Bertrand Russell . The will to doubt .

(2) Eddington . Philosophy physical science . p 185

هذه الرموز .... "ناهيك عن إصدار الرأي القطعي حول حقيقة الأشياء الكامنة وراء هذه الرموز ، يصر علم الطبيعة ، بكل قطعية ، بأن طرقه لا تستطيع الغوص إلى ما وراء الرموز البتة .

ولهذا ، يقول " إيدنجتن" : إن العالم الخارجي للطبيعة قد أصبح " عالم الظلال " *World of Shadows* .

وأصبح العلماء يعترفون الآن ، بصورة عامة ، أن الشيء النهائي ليس إلا وجوداً في غاية اللطافة الصغرى ولا يمكن مشاهدته ، فمنهم من يشرح الكون قائلاً : أنه يتكون من " موجات الاحتمالات " *Waves of Probablities* ، ومنهم من يقول : أن الكون ليس علماً على شئ : من النوع المعهود لنا بل هو سلسلة أحداث ، ومنهم من يسميه بكون الفكر *Universe of Thought* ، ومنهم من يشبه الكون بالأشباح ، ومنهم من يدعى أنه محض تركيب *Construction* ، بينما ذهب البعض الآخر إلى القول بأنه " عالم الظلال " .. وقد لخص " برتراندرسل " كل هذه الآراء والأفكار في جملة ساخرة حين قال :

" إن المادة قد أصبحت مشابهة جداً للأشباح ، فلم تعد عصا مناسبة لضرب العقل " .

وهو يضيف قائلاً :

" إن الشيء الذي كنا نطلق عليه " الجسد " ليس إلا تركيباً علمياً مصنوعاً في غاية الدقة خالياً من أية حقيقة طبيعية "(١) .

---

(١) برتراندرسل المصدر السابق .

وكانت نتيجة هذه الثورة في عالم العلوم الطبيعية ، أنك على حد قول برتراند رسل ، " لا تكاد تفتح كتاباً أو مجلة يبحث في الأفكار العملية المادية إلا وهو يتحدث عن " نهاية عصر جاليليو " و " نهاية عصر معاداة الروح العلمية " ، " وفشل الطبيعة الميكانيكية " و " الصلح بين الدين والعلم [1] ...

وقد وصل الأمر " ببرنهارد باونيك " :" أن سمى كتابه عن الطبيعة الحديثة: " العلم الحديث على خطى الدين "

" *Modern Science on the Path of Religion.* "

وهكذا كانت نتيجة هذه الثورة في عالم العلوم الطبيعية " على حد قول وحيد الدين خان " أن وصل نهر العلم إلى حيث انفصل عن الدين ، فاعترف بأن الكون في حقيقته النهائية حادث غير مادي بدلاً من أن يكون رقصاً غير هادف للمادة الميتة العمياء .

والجدير بالذكر أن في شهر تشرين الثاني – نوفمبر ١٩٨٩م– صدر عن دار أوديل جاكوب *"OdileJacob"* (في ٢٧٠صفحه) كتاب هام لقطبين بارزين هما " جان – بيرشانجو *"Jean Pierre Chageux"* و " آلان كون *"Alain" "Connes"* الذي كان لا يتجاوز في ذلك الوقت الخامسة والثلاثين من العمر .

واسم الكتاب " مادة للفكر " وفيه يناقش العالمان الشهيران آراءهما حول العالم وحول العلم وحول الرياضيات .

---

(1) Bertrand Russell . Modren science and its philosophy

وهكذا نجد في الكتاب أطروحتين : أطروحة " آلان كون" التي تقول بأن لموضوعات الرياضيات وجودا مستقلاً عن الإنسان الذي يفكر فيها ، فتتابع الأعداد الأولية مثلاً حقيقة أكثر ثباتا من حقيقة العالم الذي يحيط بنا ، وعالم الرياضيات إذن يمضي لملاقاة تلك الموضوعات ويكشف عنها .

أما " شانجو " صاحب النزعة المادية فيتساءل : ولكن أين ذلك العالم الذي توجد فيه الموضوعات الرياضية وجوداً مستقلاً ؟

وإذا كانت هذه الموضوعات موجودة في هذا العالم ، فأين هي مكتوبة فيه؟

وأين عساها توجد إن لم توجد في دماغ الإنسان الذي يفكر ؟

وهكذا يمضي الباحثان في مناقشة مشكلة فلسفية قديمة . غير أنهما يناقشانها في ضوء المعارف العلمية الجديدة . والمشكلة كانت وما تزال هل توجد موضوعات الرياضيات خارج العقل الإنساني أم أنها لا تعدو أن تكون من مبتكرات ذلك العقل ، ومن نتاج فكر الذين يفكرون فيها فيولدونها ؟

وكأننا من جديد أمام " فيثاغورث " أو " أفلاطون " نشحذ أفكارهما من خلال معطيات البحث العلمي ، متسائلين : ما العالم الطبيعي الفيزيائي ؟ وما العمليات الفكرية التي تتيح فهمه ؟ وماذا يعني الاكتشاف العلمي[1] ؟ وأعتقد أن فقرة " كيف يستلهم العقل الحقائق " قد أجابت بشكل قاطع على هذه التساؤلات .

---

(١) مجلة الثقافة العالمية – العدد " ٥٠ " . وبتصريف .

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾

قرآن كريم

الآية "٤٥ سورة النور"

التطور بين الحقيقة والوهم

* فكرة التطور ..
* نظرية التولد التلقائى في ثوب جديد .
* علم الله وعلم البشر .
* علم طبقات الأرض ونظريات التطور .
* اتفاق يقينيات علم الحفريات مع القرآن .
* نظريات مختلفة لتفسير التطور .
* معطيات العلم تؤثر على التوجهات الإنسانية .
* الشجرة والعصفور والإنسان مخلوقات من نفس المادة الخام
* إشارات أخرى لتفنيد فكرة التطور .
  - ذلك العقل الحكيم الذي لا يملكه إلا الإنسان .
  - كروموسومات تحديد الجنس لا تعترف بنظرية التطور .
* قصة الكون في الكشف العلمي .
* المعادلة الوهمية ..

  و ماذا تصنع الطبيعة والصدفة ؟
* أبو حنيفة وحكايته مع الزنديق .

فكـــرة التطـــور

ما هية

هـذه الحيـاة ومـا كنهها ؟ ومـا الأصـول الأولى لهـا ؟
متى بدأت ؟ وكيف أصبحت ؟
كيف يحدث التطور ؟ وما القوى المسببة له؟
وما العوامل ذات الأثر فيه ؟

لقد كانت هذه الأسئلة التي تدور حول أصل الحياة ، وميكانيكية التطور موضوع جدل كبير بين الناس في كل الأزمان ، وامتلأت الأساطير بالكثير من القصص الخرافية عن خلق الكون ، وشيئا فشيئا تخلص الإنسان من سيطرة الخرافة ، وبدأ يفكر تفكيرا حرا مبنيا على التأمل ، والملاحظة ، وتعددت الآراء ، وكثر الجدل ، وظهرت عدة نظريات على يد الفلاسفة ، ثم جاء العلماء ووضعوا تلك الأسئلة التي تتناول نشأة الكون وفكرة التطور فوق منضدة العلم وراحوا يضعون لتفسيرها عدة فروض ونظريات كانت لها ضجة فكرية ضخمة عند ظهورها ، ومازال الكثير منها حتى الآن يمثل قواعد وأسس علم الأحياء ، ولا يخفى على أحد مدى تخبط العلماء في تفسير علة الكون وكيفية نشأته . فتوهموا أن علم طبقات الأرض ونظرية التطور يؤكدان الفلسفة المادية تأييداً عظيماً ، وسلموا بان الحياة والعقل صورة متطورة للمادة التي كانت بدون حياة في بداية الأمر .

واذكر هنا باختصار كيف تخبط العلماء ، والتحولات التي طرأت على علم طبقات الأرض وفكرة التطور .

إن فكرة التطور قديمة ترجع إلى أكثر من ٢٥٠٠ سنة خلت، فقد أعلن الفيلسوف اليوناني " طاليس " *Thales* (٦٤٠ - ٥٤٦ ق . م) أن الماء هو المادة التي نشأت منها الكائنات الحية ، ثم جاء الكسيماندر

alexemander (٥٨٨ - ٥٢٤ ق . م) وأعزى أصل الحياة إلى مزيج من الماء والشمس ، وقد اعتقد أرسطو *Aristotle* (٤٨٤ -٣٢٢ق.م) بفكرة التحول التدريجي .. من البسيط إلى المعقد ، وحسب تعبيره من غير الكامل إلى الكامل .

وقد اعتقد " انكسيمندريس " بفكرة نشوء الأنواع وقال " الإنسان منحدر من حيوانات مائية مختلفة عنه بالنوع ، والجدير بالذكر أن فكرة انكسيمندريس تمثل أساس نظريات العلم الحديث التي تتناول أصل الإنسان وتطور الأحياء كما ظهرت فكرة التطور في كتابات قدماء المصريين ، والعرب ، ومن أبرز علماء العرب في هذا المجال " ابن رشد "و " إخوان الصفا " وغيرهم .

على الرغم من أن فكرة التطور قديمة إلا أنها لم تأخذ شكل النظرية العلمية إلا في أوائل القرن التاسع عشر حيث سلطت الأضواء وثار حولها الجدل ، وتناولها العلماء بالنقد تارة ، والتأييد تارة أخرى ، وبالتعديل في بعض الأحيان مستعينين في ذلك بحصيلة ضخمة من معلومات تجمعت لديهم نتيجة البحث المتواصل في ميدان علوم الحياة .

وقد تعددت الآراء في تعليل التباين بين الكائنات الحية وفى تفسير فكرة نشأة الحياة ، وبرزت في الميدان فكرتان هما فكرة الخلق الخاص وفكرة التطور العضوي .

وقد سادت فكرة الخلق الخاص في العصور الوسطى ، وهى تفترض أن الكون خلق منذ الأزل كما هو الآن وكل نوع من الأحياء خلق منذ البداية خلقا خاصا ، وقد بقيت هذه الأنواع كما هي ولم يحدث لها أي تغيير إلا القليل ، أما فكرة التطور فهي الفكرة السائدة في العصر الحديث والتي

تفترض أن كل نوع من الأحياء نشأ من نوع آخر كان موجودا قبله وأبسط منه تركيبا ، وفكرة الخلق الخاص تتشابه مع نظرية التولد الذاتي (التلقائي) *Gwneration Spontaneous* التي تعتقد في نشأة بعض الأحياء من أشياء غير حية ، فكان يعتقد أن الضفادع تخلق من الطين بتأثير أشعة وحرارة الشمس ، والحشرات من الندى ، والفراشات من الجبن ، واليرقات من اللحم . حتى أن أحد العلماء كتب في القرن " السابع عشر " أن الفئران يمكن أن تتولد تلقائيا إذا ترك قميص قذر مع سنابل قمح في وعاء مكشوف لثلاثة أسابيع " .

ومن العجيب أن تظل فكرة التولد التلقائي حتى القرن الماضي " التاسع عشر" تتأرجح بين هبوط ينفيها وصعود يؤكدها .

وقد تطلب تفنيد هذه النظرية الخاطئة مئات السنين من جهد العلماء لكي يثبتوا أن كافة صور الأحياء تنشأ فقط من أحياء سابقة ومشابهة لها . وقد وضع العالم الفرنسي الشهير " باستير *Pasteur* " بتجاربه المتقنة النهاية لنظرية التولد التلقائي ، وأكد صحة نظرية " الأصل الحيوي للأحياء"

نظرية التولد التلقائي في ثوب جديد

ولكن في القرن العشرين أعاد العلماء تقديم نظرية التولد التلقائي في ثوب جديد .. تحت أسم نظرية الأصل الأرضي للحياة . عندما تمكنوا من تحضير مواد عضوية قريبة الشبه بمادة الحياة " البروتوبلازم " عن طريق المكونات البدائية للقشرة الأرضية (الميثان ، الماء ، الأمونيا ، الهيدروجين) .

" ففي معهد الطب والجراحة ، في جامعة كولومبيا تمكن العالم " ستانلى ميللر عام ١٩٥٣م " .. أن يحبس في بالون سعته خمس ليترات ، خليطا غازيا يحتوى على ١٣ ٪ هيدروجين ، و٢٦ ٪ غاز الميثان ، ٢٦ ٪ غاز النشادر، ٣٥ ٪ بخار ماء تحت درجة حرارة " ٦٠ ° سنيتجراد " ، وأخضع نموذج هذه الجو البدائي إلى تفريغات تنتج عن وسيعة متصلة بمسمارين من التنجستين ، حيث تتولد أشعة غنية بإشعاعات فوق البنفسجية تحاكى الدور الذي لعبته الكهرباء الجوية – وبعد أسبوع كامل .. حدثت مفاجاءة كبرى!!! فقد أكتشف ميللر ، بعد تحليل محتويات البالون وجود حموض أمينية متعددة ، ومركبات عضوية أخرى " .

" وتتابعت المحاولات حيث تمكن العالم " شوه هاولى " من تركيب هرمون *AGTH* الذي تفرزه الغدة النخامية ويسيطر على وظائف النمو ، والتكاثر ، وقد نجحت هذه العملية في سويسرا ، والولايات المتحدة ، وتبين أن لهذا الميكروبروتين نفس خواص الهرمون الطبيعي " (١) .

وهذه المحاولات والنتائج بدت للعلماء بأنها ترسخ فكرة التطور ، وأن الحياة بنت الطبيعة والصدفة ، وأن في استطاعتهم خلق الحياة ، وبناء على

(١) قصة الحياة البيردو كروك

ذلك فإن الكون لم يكن في حاجة عند ظهوره إلى إله .

لا أدرى ما وجه الغرابة في النتائج التي توصل إليها " ميللر " ، "وهاولى " أليست هذه البروتينات التي تكونت من تلك الغازات في وجود مؤثرات خاصة بمثابة عوامل لاستمرار الحياة وليس لخلق الحياة .

بالإضافة إلى أن هذه النتائج تدعونا لنتساءل : هل أوجد ميللر ، وهاولى البروتينات من العدم أم أنهما توصلا إليها من مواد أو غازات تحت تأثير قوانين كونية قائمة بالفعل .. فتلك البروتينات لم تنشأ إنشاء من اللاشيء ولكنها تكونت من مواد وضع الله فيها الأسرار والقوانين ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾

" سورة العلق - الآية ٥ "

وإلا فمن الذي جعل من خصائص هذه المواد أن ينشأ منها بروتينات ؟! وكيف وجدت هذه المواد ؟ ومن الذي أوجدها ؟ هذا بالإضافة إلى أن ميللر، وهاولى لم يكن في استطاعتهما توليد الحياة من مواد غير عضوية ولكنهما توصلا إلى مواد عضوية قريبة الشبه بمادة الحياة .

فلو أن مزارعا أحضر كمية تراب ووضعها في أصيص ثم وضع بذرة فول في التراب وراح يراعيها بالماء حتى تنبت ، ثم قام بتعريضها إلى ضوء الشمس حتى صار الإنبات شجرة .. فهل نقول أن الذي خلق الشجرة هو المزارع ، أم الطبيعة ، أم الشجرة هي التي خلقت نفسها بنفسها .. أم نقول: أن المزارع وفر للبذرة العوامل المناسبة حتى صارت شجرة بفضل تأثير القوانين الكونية التي وضعها الله .

فهل لنا أن نؤكد ضرورة التأمل والتأني .. والموضوعية والأمانة .. وأن يكون الحق غايتنا المنشودة .

علم الله ..... وعلم البشـــر

خلق | الله سبحانه وتعالى الإنسان دءوبا على البحث والتعلم .. كما حثه على طلب العلم[1] ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

" سورة طه – الآية ١١٤ "

والآية قدمت العلم على الإيمان .. لأن العلم يصل بالإنسان لأعلى درجات الإيمان ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

" سورة الزمر – الآية ٩ "

﴿ .... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ...﴾

" سورة فاطر – الآية ٢٨ "

فالقرآن الكريم لم يذكر العقل إلا في منزلة التعظيم والإجلال ، وضرورة العمل به والرجوع إليه .

﴿ ... وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾

" سورة فاطر – الآية ٢٨ "

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ .....﴾

" سورة العنكبوت – الآية ٢٠ "

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾

" سورة الغاشية – الآيات ١٧: ٢٠ "

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ ﴾ " سورة الطارق – الآية ٥ "

---

(١) مادة " علم " وردت بمشتقاتها في القرآن ٨٥٥ مرة .

وجاءت أحاديث الرسول ﷺ أيضاً تحث على التعلم والتعليم (خيركم من تعلم العلم وعلمه) ...(اطلب العلم من المهد إلى اللحد) . (طلب العلم فريضة على كل مسلم)[1] ... (.... ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً .. سهل ا لله به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت ا لله يتعلمون القرآن ، ويتدارسونه إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم ا لله فيمن عنده..)[2]

ومن سنن ا لله على البشر أنه ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ.. ﴾
" سورة البقرة – الآية ٢٥٥ "

ليساعدهم على تسخير الطبيعة والاستفادة منها ، وكان قانون العطاء الإلهي . ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) ﴾
" سورة النجم – الآية ٣٩ "

ومهما بلغ الإنسان من العلم ، فعلمه قليل وضئيل ومحدود أمام علم ا لله الواسع الشامل ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) ﴾ .
" سورة الإسراء – الآية ٨٥ "

والفرق بين علم ا لله ، وعلم البشر ليس فقط في اللامحدود والمحدود، أو أن علم ا لله واسع شامل وعلم البشر قليل ومحدود ، بل يتجاوز ذلك .. فعلم ا لله علم طلاقة قدرة .. أما علم البشر فهو للنفع وسد لاحتياجاتهم .

---

(١) رواه ابن ماجة

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه .

بأمر الله وإرادته نستطيع فقط أن نغير ونؤثر في الطبيعة ، ومسيرة الحياة ، ولكن ليس يوسعنا أن ننشئ شيئا من العدم ، أو نخلق الحياة .

وقد أعلن العالم " أوبارين " في مقدمة البحث الذي ألقاه على مئات العلماء في المؤتمر الدولي الأول الذي أقيم في نيويورك شهر أغسطس عام ١٩٥٩ م " إن جميع المحاولات التي أجريت لتوليد الحياة من المواد غير العضوية سواء تحت ظروف طبيعية أو في المعمل قد باءت بالفشل .

وهذا العجز مازال قائماً حتى الآن وسيظل قائماً حتى قيام الساعة .

﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

" سورة يس – الآية ٨٢ "

إن علم خلق الكائنات والحياة من العدم .. أو خلق الكائنات والحياة من مكونات العدم .. هذا العلم الذي لا يعلمه إلا الله تعالى .. يعلن عبر كل العصور والأزمنة عن العجز الإنساني الذي يتمثل في عدم مقدرته على خلق ذبابة ، وهى أحقر مخلوقات الله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴾

" سورة الحج – الآية ٧٣ "

هذا هو التحدي ... فهل من إنسان قادر ؟!

......

علم طبقات الأرض ونظريات التطور

اكتشف العلماء أن قشرة الكرة الأرضية تتكون من صخور رسوبية في طبقات متراصة بعضها فوق بعض ، ومن البديهي أن تكون الطبقات السفلى هي الأقدم ، والطبقات العليا هي الأحدث .

ومنذ أن اكتشف " وليم سميث *W.smith* " أن لكل طبقة أو مجموعة من الطبقات الرسوبية حفريات خاصة بها ، نشأ الاعتقاد بأن الكرة الأرضية مرت بسلسلة من الأزمنة الجيولوجية يتميز كل منها بأنواع خاصة من الكائنات الحية ، وعلى هذا الأساس قام علماء " طبقات الأرض" بتقسيم الحياة إلى ثلاث أحقاب : حقبة الحياة القديمة (باليوزويك) ، وحقبة الحياة الوسطى (ميزوزويك) ، وحقبة الحياة الحديثة (سينوزويك) وكل حقبه مكونة من عدة عصور مرتبة من الأقدم إلى الأحدث ، وبواسطة الحفريات التي عثر عليها العلماء في طبقات الصخور الرسوبية ، وتحديد عمرها باستخدام العناصر المشعة كالكربون المشع ، توصل العلماء إلى طبيعة وشكل ومميزات حياة كل عصر وبالتالي كل حقبة .. ، وتبين للعلماء من دراستهم للحفريات.. أنها سجل يحكى قصة الحياة منذ نشأتها في نظام ، ودقة ، ودون تحريف ، أو تعديل .

ويشير السجل الحفري إلى أن حفريات الكائنات البسيطة توجد في الطبقات السفلى للصخور الرسوبية ، بينما بقايا الكائنات الراقية فتوجد في الطبقات العليا .. أما الطبقات السفلى الموغلة في القدم فلا تحتوى على حفريات .. كمّا يدل سجل الحفريات على أن الحياة ظهرت أولاً في الماء ثم انتقلت إلى اليابسة .. وأن الحياة تتطور نحو التخصص والتعقيد .

وهذا التدريج الملحوظ من البسيط إلى المعقد ، والتسلسل في الرقي من طائفة إلى طائفة ، حدا العلماء إلى تمثيل تصنيف كل من عالمي النبات والحيوان بشجرة كثيرة الفروع ترتيبها من أسفل إلى أعلى : " أوليات – أسفنجيات – جوفمعويات – ديدان مفلطحة – ديدان حلقية – قشريات– حشرات – رخويات – جلد شوكيات – أسماك – زواحف – قردة – إنسان " .

وقد ترتب على تصنيف النباتات والحيوانات اكتشاف فراغات في التسلسل من طائفة إلى طائفة ، ولكن البحث المستمر ساعد العلماء على سد بعض هذه الفجوات بمجموعة من الأحياء المنقرضة أو المعاصرة أطلق عليها أسم الحلقات المتوسطة " ومن اشهر أمثلتها " الأركيوبتركس " الذي يمثل حلقه متوسطة بين الزواحف ، والطيور " حيث أنه يجمع بعض صفات الزواحف (كالذيل والأسنان) ، والطيور (كالجناح ، والريش) في آن واحد " كدليل على تطور الطيور عن أنواع من الزواحف ..، وهكذا – على حد قول العلماء – قدم علم الحفريات أدلة التطور .

شغلت فكرة التطور عقل العلماء ، ولذلك ظهرت علوم مختلفة هدفها أن تؤكد فكرة التطور مثل علم " التشريح المقارن بين أعضاء الحيوانات المختلفة " ، وعلم " " التشابه الفسيولوجى " مثل تشابه تركيب الدم والهرمونات في الفقاريات ، وعلم " الأجنة " الذي يخلص فيه العلماء أن تطور جنين الإنسان يلخص تطور الكائنات الحيوانية ، حيث أن الدراسات أثبتت أن قلب الإنسان في الأطوار الأولى مكون من أذين واحد، وبطين واحد مثل الأسماك ، وله فتحات خيشومية وذيل ، وفى الطور التالي تختفي الفتحات الخيشومية ، وينقسم الأذين إلى أيمن وأيسر مثل جنين الزواحف . كما أن الشعر الذي يكسو جنين الإنسان في الشهر السادس

والذيل الذي يظهر في نهاية العجز يؤكد - على حد قول العلماء - الصلة بين الإنسان والأسلاف الأولى للثدييات .

وظلت هذه النظريات تتأرجح بين نقد يسقطها ، وتأييد يجعلها مقبولة. وتلك هي طبيعة العلم .

ونود هنا أن نكرر ما يؤكده العلماء في هذا المجال وهو أن النظرية العلمية ما هي إلا تفسير لظواهر معينة . وتظل النظرية مقبولة طالما استطاعت تفسير جميع الظواهر القائمة والمستجدة المتعلقة بموضوعها . فإذا عجزت عن تفسير ظاهرة جديدة في موضوعها وجب تعديل النظرية أو إسقاطها ، فالحقائق العلمية دائماً نسبية وغير مطلقة . فالعلم منهج اختباري شامل . والظواهر كثيرا ما خدعت العلماء .. ولعل ذلك يفسر انتشار العلم الظني والنظريات الواهية عبر العصور .

اتفاق يقينيات علم الحفريات مع القرآن

وإختلاف تفسير العلماء لتلك اليقينيات مع تفسير القرآن :

بادئ ذي بدء يجب أن نفرق بوعي بين اليقينيات العلمية ، وبين تفسير ، وآراء العلماء لتلك اليقينيات .

فاليقينيات العلمية حقائق مؤكدة بالمشاهدات والأدلة . فهي إذن تمثل أمامنا نتائج الأبحاث المضنية والدراسات الوافية .. أما تفسيرات العلماء لهذه اليقينيات قد تحتمل الخطأ أو الصواب .. فعلى سبيل المثال أن عالم الحفريات الموجود في طبقات الأرض ، والخاصة بكل حقبة ، وتسلسلها علم يقيني وثابت .. أما تفسير العلماء لحيثيات هذه الحفريات قد يحتمل الصواب أو الخطأ ، والتفسيرات المطروحة مقبولة دائما طالما أنها منطقية .

وإذا كانت اليقينيات العلمية التي توصل إليها العلماء بعد البحث ، والدراسات ، وبواسطة الآلات الحديثة ، والأجهزة الدقيقة ، والتقنيات المذهلة تتفق مع كونيات القرآن الذي نزل منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة ، في زمن لم يكن فيه تلك الآلات ، والأجهزة ، والتقنيات . فإن من الأولى أن يكون تفسير القرآن للحقائق الكونية هو فقط المقبول دون غيره من تفسيرات العلماء الظنية .. بالإضافة إلى أن الحقائق الكونية التي ذكرها القرآن والتي اكتشفها العلماء تعتبر دليلاً مادياً يؤكد صحة القرآن وما به من عقيدة ، وبالتالي دليلاً مادياً يؤكد وجود ا لله .

توصل العلماء من دراستهم للحفريات – بعد تضارب الآراء ، وتخبط في الطرق العديدة التي سلكوها – أنها سجل يحكى قصة الحياة منذ نشأتها في نظام ودقة ودون تحريف أو تعديل ، ويدل سجل الحفريات على أهمية الماء في خلق الكائنات الحية ، وأن اللافقاريات ظهرت قبل الفقاريات

ثم ظهرت الزواحف ثم الطيور ، والثدييات .. نجد أن هذا العلم اليقيني يتفق مع القرآن تمام الاتفاق في قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) ﴾ " سورة الأنبياء – الآية ٣٠ "

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) ﴾ " سورة النور – الآية ٤٥ "

تشير الآية القرآنية الأولى إلى أهمية الماء في خلق الكائنات الحية ، أما الآية الثانية فتشير – بالإضافة إلى أهمية الماء – إلى تسلسل ظهور الحياة على الأرض . (فمنهم من يمشي على بطنه) إشارة إلى الزواحف (ومنهم من يمشي على رجلين) إشارة إلى الطيور ، (ومنهم من يمشي على أربع) إشارة إلى الثدييات . ، وهذا التسلسل كما نرى يتفق معه علم الحفريات .

إن التدرج الملحوظ للحفريات والتسلسل في الرقى من طائفة إلى طائفة ، جعل العلماء يفسرون الحقائق العلمية على أهوائهم معتمدين على أفكار سرابية عن نشأة الكون وبدء الحياة ، وحداهم ذلك إلى تصنيف كل من عالمي النبات والحيوان بشجرة كثيرة الفروع ترتيبها من أسفل إلى أعلى " أوليات – إسفنجيات – جوفمعويات –ديدان مفلطحة –ديدان حلقية – قشريات –رخويات – جلد شوكيات – اسماك– زواحف –قردة – إنسان" وهذا الترتيب والتدرج لا يعنى به العلماء ترتيب ظهور الكائنات الحية فقط –وإلا ما كنا متعارضين معهم كما وضحنا سابقا–ولكنهم يعنون به أن كل كائن في شجرة التطور نشأ من سابقه حتى نشأ الإنسان من القردة ، واعتبر العلماء إن هذا التسلسل في الرقي دليل على صحة فكرة التطور ،

إذ يزعم بعض علماء التطور .. أن هناك أنواعاً طائرة من الدناصير انحدرت من أسلاف من أكلة اللحوم تطورت ، فأصبحت طيور البوم .

نظريات مختلفة لتفسير التطور

عندما ظهرت نظرية " لامارك ١٧٤٤ - ١٨٢٩ *Lamarck* " عن تطور الأحياء .. أثبتت معارضة شديدة ، فمن الثابت علميا أن الصفة التي يرثها الكائن الحي من أبويه عن طريق الخلايا الجنسية ولا دخل للخلايا الجسدية فيها .. بمعنى أن التغيرات المكتسبة لا تورث .. مما أكد خطأ نظرية لامارك .

وفي المقابل وعلى عكس اللاماركية تطورت نظرية " دارون "[١] عن أصل الأنواع تطورا مذهلا لدرجة لم يكن العلماء يتوقعونها ، ورغم ذلك ظلت نظرية دارون نظرية مبهمة وغير مفهومة حتى الآن .

ويتلخص رأى دارون في الانتخاب الطبيعي .. بأن التغير في الأنواع يحدث بانقراض الأفراد الضعيفة التي لا تستطيع أن تواجه ظروف البيئة ، ومتى انقرض الحيوان الضعيف فلا مجال لتوريث صفاته إلى غيره . أما الأفراد التي تكون مزودة بصفات تلائم ظروف البيئة فإن هذه الصفات تساعدها على البقاء والازدهار ، وتورث صفاتها لنسلها وباستمرار الانتخاب تنشأ أنواع مختلفة من الأنواع القديمة ، تمتاز بقدرتها على التكيف والملاءمة وهذا ما يعرف بالبقاء للأصلح .

ورغم ما أثارته نظرية دارون من ضجة علمية إلا أنه أُثيرت عدة اعتراضات عليها منها : أنها لا تفسر الظهور الفجائي للصفات .

وعندما ظهرت نظريات " مندل " في الوراثة عام (١٨٦٦م)

---

(١) سبق الفيلسوف أنكسيمندريس " ٦١٠ - ٥٤٧ ق.م " دارون عندما قال " الإنسان منحدر من حيوانات مائية مختلفة عنه بالنوع "

كانت بمثابة تصدع في كيان نظرية دارون الذي جعل غالبية التغيرات للكائنات تغيرات جسمية ، أي غير وراثية ، بالإضافة إلى اعتراضات أخرى. لكن علماء التصنيف الذين أتبعوا منهج دارون لاحظوا التغير المستمر في الطبيعة ، وفسروه تفسيرات تتماشى مع مفهوم نظرية النشوء ، والارتقاء لدارون ، عكس علماء الوراثة أمثال " مورجان ، ودى فريز " الذين اتبعوا نظريات مندل ، واستمرت بحوثهم في الوراثة ، واكتشفوا المزيد من أسرارها، واكتشاف الأحماض النووية وشفرة الوراثة ونظرية الطفرة للعالم "دى فريز" .

وهكذا نجد علماء الوراثة يثبتون أن التغير لم يكن مستمرا ومتواصلا، لأنه حدث في شكل طفرات وراثية مما أوجد متغيرات طفيفة في الكرومسومات أو في طبيعة الجينات ، نتيجة تعرض الخلايا التناسلية للمؤثرات البيئية من إشعاع ، ومؤثرات كيميائية ، وصدمات حرارية ، وتبعا لذلك يمكن أن تكون الطفرة سبباً في حدوث تغيرات كبيرة ، وظهور أنواع جديدة من الكائنات .

ورغم أهمية نظرية الطفرة إلا أن بعض العلماء رأى أنها لا يمكن أن تفسر هذا التنوع الكبير في الكائنات ، كما أن هناك طفرات ضارة ، ومعظم الطفرات متنحية .

وقد حاول فريق ثالث من العلماء أمثال " سمبسون " *Simpson* " " جوليان هاكسلى " *J. Huxley* " وآخرون ... التوفيق بين المندلية والدارونية في نظرية تركيبية حديثة *Modern Synthetic Theory* تعزو ظهور الأنواع الجديدة إلى التغير الذي يحدث في الجماعات لا الأفراد، ويستمر توارث ذلك التغير الذي يتعرض لعوامل الانعزال ، والانتخاب الطبيعي حتى تَنتج أنواع جديدة .

لكن علماء الأحافير في ستينيات القرن الحالي أكدوا استحالة التحول التدريجي أو البطيء الذي أظهرته نظرية دارون . ومن منطلق مقولة أن الحياة التي نشأت منذ ٣٥٠٠ مليون سنة لا يمكن تكرارها بالصورة التي حدثت في بيئاتها الأولى .. نجد عالم الجينات " كلموس كساني " ينتقد نظرية التطور قائلاً " إنها نوع من التبسيط المبالغ فيه لأنها تجاهلت أن الكائن الحي أثناء تغيره تحت الظروف البيئية يصبح نفسه جزءا من البيئة فيغيرها . بمعنى آخر أن الكائن الحي يؤثر في البيئة مثلما يتأثر بها ، وهذا جعل علماء الوراثة يشكون في أهمية التطور من خلال التكيف بالبيئة ، وعارض علماء الجغرافيا الحيوية وهجرة الحيوانات هذه الفكرة عندما بينوا أن التخصص لا يمكن حدوثه في مكان واحد ، لأن أي نوع عندما يهاجر من مكانه فإنه يتحول بعد فترة ، ويصبح نوعا جديداً .

يجد العلماء حديثا أن التطور بدأ غير عضوي بظهور بلورة الصلصال ، ثم أصبح عضويا وجزئيا في ماكينة (الدنا *DNA*) التي صنعت الأنوية الصغيرة عن طريق الانتخاب الطبيعي . لهذا –على حد قول العلماء – نجد المعادن الصلصالية كانت المواد الرئيسية التي كونت منها بالصدفة الأحياء الأولية ، ولم يؤكد العلماء بأن بلورات هذا الصلصال كانت حية لكنهم اعتبروها كائنات سابقة للتطور مع أنهم يعتبرون نشأة الحياة في حد ذاتها فكرة غامضة حتى الآن .

وهكذا بعد الأبحاث ، والدراسات العديدة ، والمضنية ، والآراء ، والنظريات المختلفة ، والمتضاربة .. أجاب العلم والعلماء على سؤال البشرية الحائر عن كيفية نشأة الحياة .. أجاب قائلاً : أن نشأة الحياة في حد ذاتها فكرة غامضة حتى الآن .

معطيات العلم تؤثر على التوجهات الإنسانية

وبصرف النظر عن مدى صحة أو عدم صحة هذه النظريات ..
تُرى هل هذه النظريات المختلفة عن التطور ، وأصل الإنسان ، ونشأته الأولى ، والهجرات البدائية ، والهجرات الكبرى التي توضح السكان الأصليين للقارات ، وأصول اللغات ،...

هل تؤدى في المستقبل إلى تغيرات في مجال .. سياسات الدول والعلاقات البشرية ، والتقسيمات الجغرافية ، مثلما ترتب على نظرية الانتخاب الطبيعي لدارون ظهور فلسفة الاعتداء والعنف والاغتصاب التي نشرها الفيلسوف الألماني نيتشه *Nietzsche* " ١٨٤٤ - ١٩٠٠ م " فدخل العالم في غمار حروب طويلة منها حرب السبعين عاما ، والحربين العالميتين ، وأطلقت الشعارات بسيادة جنس على آخر مثل شعار سيادة الجنس الآري بألمانيا والذي أطلقه هتلر ، وكان سبب هاما من أسباب قيام الحرب العالمية الثانية .

مما لا شك فيه أن التوجهات السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية .. لكل عصر نابعة مما يعتقده الناس من عقائد ، وقيم ، ومبادئ .. وهذا ما يعتقده الناس مما لا شك فيه أنه يتأثر بشكل مباشر ، وغير مباشر بالمعطيات العلمية سواء الظنية ، أو اليقينية . فمعطيات العلم تؤثر على التوجهات الإنسانية بشكل عام .

الشجرة والعصفور والإنسان .....
مخلوقات من نفس المادة الخام

إذا كان استمرار الانتخاب الطبيعي قد لعب دورا في خلق أنواع مختلفة وجديدة من الأنواع القديمة -كما يرى علماء التطور - فلماذا وكيف تبقى الأنواع القديمة كما هي حتى الآن دون أن تتطور هي الأخرى إلى كائنات جديدة ومختلفة..

وإذا كان هناك عامل ما عمل على حفظ الأنواع القديمة ، فلماذا لم يؤثر الانتخاب الطبيعي والتطور في الإنسان لينشئ منه كائنا آخر أكثر تطورا ورقيا عن الإنسان الحالي . وإذا كان الزمن الذي انقضى في تطور وتحول إنسان جنوب أفريقيا الشبيه بالقرد - وهو أول نوع مشابه للإنسان - هو حوالي مليون سنة حسب تقدير العلماء ، فلماذا لم نر قرداً تحول إلى بشر ، حيث إن الزمن الذي مر على القرد منذ أول ظهوره وحتى الآن يساوى نفس الزمن الذي تحول فيه القرد إلى إنسان جنوب إفريقيا بالإضافة إلى الزمن الذي تحول فيه إنسان جنوب إفريقيا إلى الإنسان العاقل أو الحديث .

فهل الصدفة والانتخاب توقفا عن خلق كائنات جديدة ؟ وهل التطور توقف عن نشوء أنواع جديدة من البشر لا تماثلنا ؟!!

فهل عُقد اجتماع قمة ثنائي بين الصدفة والانتخاب ، واتفقا فوق مائدة المفاوضات على إلغاء التطور ؟ !!!

فيا علماء التطور ويا أنصار الاعتقاد القائل بأن الإنسان أصله قرد .. إذا كنتم قد حضرتم ذاك الاجتماع ، فلماذا لم تعلنوا رجاءكم متوسلين

لآلهتكم – الصدفة والانتخاب – بالرجوع عن قرارهما التعسفي الذي تم بموجبه إلغاء التطور ؟!!!!!

إذا كان دارون ومؤيدوه يقصدون بالتطور .. هو أن استمرار الانتخاب الطبيعي يعمل على تحسين حالة الأفراد الجديدة ، بحملها اكثر عدد من الصفات المرغوب فيها مما يجعلها أكثر مقاومة ، ومعايشة لظروف البيئة ، بحيث يكون " البقاء للأصلح " ، أو بالأحرى البقاء الشريف للأصلح " كان ذلك مقبولا ًوحسناً .

أما إذا كان دارون ومؤيدوه يقصدون بالتطور .. هو أن استمرار الانتخاب الطبيعي يعمل على خلق أنواع جديدة مختلفة عن النوع الأصلي كأن تتحول السمكة إلى طائر ، والدناصير الطائرة إلى طيور البوم ، والقرد إلى إنسان ، فإن هذا لا يقره عقل ، ولا يقره علم يقيني حتى الآن .

إن فكرة التطور تسيطر على عقول العلماء للدرجة التي تجعلهم يفسرون جميع الظواهر والحقائق العلمية ، بشكل يحاولون فيه إثبات صحة التطور ، وأن الإنسان من أصل حيواني .. تلك السيطرة التي تَحُول بينهم، وبين أي تفكير حر آخر يعلل لهم حقيقة الظواهر .

ومن ثم نجد العلماء يعتقدون – كما أوضحنا في فقرة سابقة – أن تطور جنين الإنسان يلخص تطور الكائنات الحية ، ولأن أجنة الثدييات تتشابه في أطوارها الأولى ، بالإضافة إلى الشعر الذي يكسو جنين الإنسان في الشهر السادس .. فهذا يؤكد الصلة بين الإنسان ، والأسلاف الأولى للثدييات . ولأن توجد كائنات تحمل صفات مشتركة بين الزواحف والطيور مثل " الاكيوبتركس " ، وخلد الماء " منقار البط " فهذا دليل على الحلقات المتوسطة للتطور ، ولأن الشفرة الوراثية عالمية أو عامة ***Universal***

بمعنى أن نفس الكودونات[1] تمثل شفرات لنفس الأحماض الأمينية في كل الكائنات الحية – من الفيروسات إلى البكتريا ، والنباتات ، والحيوانات ، والفطريات – التي تمت دراستها حتى الآن ، فهذا دليل قوى – على حد قول العلماء – على أن كل الكائنات الحية الموجودة الآن على وجه الأرض قد نشأت عن أسلاف مشتركة .. ولأن الإنسان يشبه في مظهره العام القرد فهذا دليل على قردية الإنسان[2] .. وعلى نفس المنوال راح العلماء يجرون وراء سراب يبدو ، أو يتراءى لهم في صحراء النفس القاحلة .

فلما لا تكون عالمية الشفرة دليل على وحدانية الخالق ، ولما لا تكون الشفرة عالمية طالما أنا ، وأنت ، والشجرة ، والعصفور مخلوقون من نفس المادة الخام .. ألا وهى طين الأرض .

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

" سورة الأنعام الآية ٣٨ "

يحاول بعض العلماء ، والمفكرين المسلمين أن يوفقوا بين آراء دارون ، وعلماء التطور ، وما أشار إليه القرآن " في هذا الصدد " على نحو يؤكد أن الإنسان تطور عن كائنات أخرى مختلفة عنه بالنوع ، ولكن ليس بالصدفة ، ولكن بإرادة الله .

---

(١) الكودونات : الشفرات الخاصة بكل حمض أميني .

(٢) جاء في الأساطير أن هذا التشابه بين الإنسان والقرد جعل الإنسان القديم يعتقد بأن القرد هو محاولة خاطئة من الله عندما أراد خلق الإنسان .

وأعتقد أن ما عرضناه يكفي لتفنيد آرائهم ، ومحاولاتهم التوفيقية ، ونضيف إشارة أخرى ، وهى أن من معجزات عيسى " عليه السلام " قدرته على القيام بعملية الخلق بإذن الله، ويوضح القرآن ذلك على لسان عيسى ﴿ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

" سورة آل عمران – الآية ٤٩ "

فإذا كان هذا حال عيسى المخلوق ، فما بالنا بقدرة خالق عيسى .. أليس هذا دليلا قاطعا على أن الإنسان أصله إنسان وليس قردا ، وأن جميع الكائنات الحية خلقت خلقا خاصا ، وأنها مشكلة أو مصممة بيد أو بإرادة الله ، فلا صحة إذن أنها خلقت من بعضها البعض بفعل التطور .

نحن لا ننكر الطفرات ، أو التغيرات التي قد تطرأ على الكائن الحي ، ولا ننكر أيضاً أن الانتخاب الطبيعي يعمل على تحسين حالة الأفراد الجديدة. ولكننا ننكر بشدة الاعتقاد بأن طيور البوم أصلها دناصير طائرة ، وأن الإنسان أصلة قرد ، وأن الكائنات الحية نشأت عن أسلاف مشتركة .

إشارات أخرى لتفنيد فكرة التطور

العقل الحكيم الذي لا يملكه إلا الإنسان

ما الفرق الجوهري الذي يميز الإنسان عن الحيوان ؟
قيل أنه النطق ، وقيل أنه الضحك ، وقيل أنه العقل ، ولكن الببغاء يتكلم، والقرود تضحك ، والحيوانات تعقل، ولعل هذا الذى جعل " كانط " يستبدل التعريف الشائع للإنسان والذى يقول : " الإنسان حيوان عاقل " بتعريفاً آخر يقول : " الإنسان حيوان أخلاقي " وهو أيضاً الذى جعل " هارتمان " .. يقول : " الإنسان وحده هو الموجود الحامل للقيم الأخلاقية " .. فالإنسان يسعى دائماً لتحقيق مثلاً أعلى ويقول أرسطو : " الإنسان حيوان إجتماعي بطبعه " .. ويقول دارون في كتابه " أصل الأنواع " : " بأن الفرق بين الإنسان والحيوان فرق بالكم أو الدرجة فقط ، وأن المسافة بين القوى الفكرية لحيوان من أدنى الفقاريات ، والقوى الفكرية لقرد من القردة العليا.. أكبر من المسافة بين القوى الفكرية في القردة وبينها في الإنسان ".

وأخيراً اهتدى العلماء إلى أن الإنسان حيوان ذو تاريخ ، أي أن الإنسان يستفيد من تجاربه وتجارب الأجيال السابقة .

ولكنى أرى أن هناك فرقاً آخر جوهرياً يميز الإنسان عن الحيوان هذا الفرق يتعدى حدود الكم ، والدرجة التي قال بها دارون ، ويتعدى أيضاً حدود ما توصل إليه العلماء بالنسبة لآخر تعريف للإنسان ، أو يكشف الوسيلة التي بواسطتها يستفيد الإنسان من تجارب الآخرين .
هذا الفرق الجوهري يتمثل في التخيل .. أو القدرة على التخيل ..كيف ؟!

منذ أن خلق الله سبحانه " آدم " وجعله خليفة في الأرض احاطة بعلم كي يستطيع الفهم ، والتعامل مع الكون الذي أودع الله فيه الأسرار، والنواميس ، والخواص والعلوم الغزيرة " وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا " فالأسماء درب المعرفة ، والمعرفة غذاء الخواطر ، والخواطر عين النظر والتأمل ، والتأمل يهدى إلى الاستنباط وربط النتيجة بالأسباب .. إن الله أعطى آدم وذريته مفاتيح أسرار الكون ليكتشفوا أسرار الكون سراً تلو الآخر .. والإنسان بهذه الأسماء أو المفاتيح اتسع عقلة ليكتشف الكون ويتعلم من المخلوقات المحيطة به ، ثم يُبدع ويضيف إلى ما تعلمه وسيله أخرى تُعينه على سد احتياجاته بشكل أكثر تطوراً ورقياً وكان سبيله إلى ذلك هو التخيل المقترن بالعقل..! فعلى سبيل المثال نجد الإنسان في البدء تعلم من القرد كيف يكسر ثمرة البندق عندما يضعها داخل تجويف أحد فروع الأشجار الملقى فوق الأرض ، ثم يضربها بفرع شجرة آخر ليكسرها ويأكل ما بداخلها . في البدء تعلم الإنسان ذلك تماماً ، ثم عن طريق الخيال المقترن بالعقل تخيل ما يجب أن يصنعه من أجل الحصول على طريقة مُثلى في كسر ثمرة البندق وبالفعل حقق ما تخيله وصنع آلة كسارة البندق .. أما القرد فمازال حتى الآن ، وسيظل دائماً يكسر البندق بطريقته التقليدية البدائية .

نعم .. أن التخيل هو الفرق الجوهري الذي يميز الإنسان عن الحيوان أو القرد ، وهو أيضاً سر التقدم ، والرقى ، والحضارة ، والتاريخ أذن الحضارة ، أو التاريخ هو أحد نتاج التخيل .

كثيراً ما نرى في السيرك الحيوانات ، وهي تمارس ألعاب في غاية الصعوبة وتحتاج إلى درجة عالية من الذكاء ، والفهم ، والوعي ، والإدراك ، وفهم التخاطب الحركي (الإشارات) بينها وبين مدربها .

ورغم كل ذلك فإن هذه الحيوانات لا تستطيع أن تفعل شيئاً سوى الذي تعلمته ، بالإضافة إلى أننا لم نر قرداً من القردة العليا ابتكرا أو صنع شيئاً متطوراً راقياً يساعده على سد احتياجاته بطريقة مُثلى ، وسبب ذلك أنه لا يملك ملكة التخيل، أو العقل الحكيم الذي لا يملكه إلا الإنسان والسبب في أني أطلقت على ملكة التخيل أسم " العقل الحكيم " لان ملكة التخيل هي السر العظيم أو العقل الحكيم الذي يتلقى به الإنسان الإلهام الإلهي ليكتشف به حقائق الكون ويسيطر عليها حتى تصبح مسخره لخدمته وسد احتياجاته .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

"سورة الجاثية – الآية ١٣ "

وكافة الكائنات الأخرى لا تملك هذا العقل الحكيم لأنها ليست معنية بخلافة الأرض وأعمارها ، ولكنها تملك العقل الفطري الذي يوحي إليه الله بكيفية التصرف وفعل الأفعال ، وكل ما يساعدها على الحياة ، والبقاء ، والاستمرارية .

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

" سورة النحل – الآية ٦٨ "

ويحضرني في هذا المقام عبارة ساحرة للمصور الأسباني فرانسسكو جويا (١٧٤٦ – ١٨٢٨) تلك العبارة التي كتبها على لوحته " أحلام العقل " وهو يصور بها رجلاً منهوك القوى ، وحوله تهافتت كائنات مخيفة .

" إذا العقل استغنى عن الخيال .. تولدت أشباح مخيفة ، أما إذا أقترنا فانتظر منهما المعجزات " .

ورغم اختلاف الكثير من المفكرين والأدباء في تفسير هذه العبارة إلا أني

أرى أن " جويا " أدرك الفرق الجوهري الذي يميز الإنسان المتقدم عن الإنسان المتخلف .. ألا وهو قدرته على التخيل ، نعم إن المعجزات البشرية من صناعات ، واستكشافات كان يسبقها التخيل ليس التخيل الذي يجعلك تصعد جبلاً شاهقاً أو تطير إلى أعلىَ في السماء وأنت جالس - كما يعتقد البعض - ولكن أقصد بالتخيل هنا التخيل الذي يجعلك تتخيل ما يجب أن تفعله أو تصنعه من أجل أن تتسلق الجبل أو من أجل أن تطير مثل الطيور فيقودك أن تصنع أشياء مُعينة تساعدك على التسلق أو الطيران .

إن الفرق الجوهري الذي يميز الإنسان عن الحيوان هو القدرة على التخيل ، فالإنسان بخياله صنع كسارة البندق ، وصنع الطائرة ، والصاروخ، وأنشأ الحضارة .

إن التاريخ ، أو التجارب السابقة محطة الإقلاع التي ينطلق منها خيال الإنسان ليحلق فيما وراء الظواهر ، أو الموجودات فيأتي بإبداع جديد أو تكنولوجيا جديدة .

إذن الفرق الجوهري الذي يميز الإنسان عن الحيوان هو القدرة على التخيل.. بينما الفرق بين الدولة المتقدمة ، والدولة المتخلفة هو فرق في درجة القدرة على التخيل ، وهناك عدة عوامل يتوقف عليها درجة التخيل منها الفروق الفردية ، والنواحي الاقتصادية ..الاجتماعية .. السياسية ، وأيديولوجية المجتمع العقائدية ، والفكرية ، والحياتية ، بالإضافة إلى التوجهات العامة للدولة .

*** كروموسومات تحديد الجنس لا تعترف بالتطور**

يُعرض العلماء عن حقائق علمية تنفى فكرة التطور ، فعلى سبيل المثال.. لم يفسر لنا العلماء - إذا صحت فكرة التطور - كيف تم اختلاف عدد الكروموسومات في الكائنات الحية المختلفة ، فعدد الكروموسومات في

الحصان ٣٣ زوج وفى الكلب ٣٩ زوج ، وفى الغنم ٢٧ زوج ، وفى القرد ٢٤ زوج ، وفى الإنسان ٢٣ زوج .

ويوجد مثال آخر أعتقد أنه يهدم نظرية التطور هو اختلاف الصبغات التي تحدد الجنس في الكائنات الحية .

كان العلماء يظنون أن نظام تحديد الجنس في الإنسان ، والثدييات بوجه عام هو نفسه الذي يعمل في باقي الحيوانات ، (وأعتقد أن هذا الظن الخاطئ كان نتيجة لنظرتهم الأحادية التي تتمثل في اعتقادهم بفكرة التطور وبأن الكائنات الحية نشأت من بعضها البعض) .

إلا أنه مع تطور أساليب البحث اتضحت الحقيقة وهى أن الصبغي " Y " يحدد الجنس الذكرى في الإنسان ، والثدييات ، والدروسوفيلا ، أما في الطيور ، والفراشات فان الصبغي " Y " يحدد الجنس (الأنثوي) ، وأما في الخنافس والجراد فان عدم وجود صبغي آخر مع " X " يحدد الجنس (الذكري) .

الأنـــــواع	تركيب الذكر	تركيب الانثى
الإنسان–الثدييات –ذبابه الدروسوفيلا	XY	XX
طيـــور – فـــراشـــات	XX	XY
جـــراد – خنافـــس	X0	XX

وما أريد أن أشير إليه هو أن هذا الاختلاف الصبغي الذي يحدد الجنس في الكائنات الحية .. أليس دليلا قاطعا على عدم صحة الاعتقاد بفكرة التطور ، فـإذا كانت الكائنات الحية نشأت عن أسلاف مشتركة وتطورت من بعضها البعض ، لكان نظام تحديد الجنس في الإنسان ،

والثدييات هو نفسه الذي يعمل في بقية الحيوانات .

وما يثير التعجب هو تجاهل العلماء لهذه الحقيقة التي تطمس ظنهم الخاطئ ، فهم لم يطرحوا سؤالاً هاماً -إذا صحت فكرة التطور - فكيف حدث الاختلاف الصبغي الذي يحدد الجنس في الكائنات الحية ؟ وبمعنى آخر كيف يعمل الصبغي " Y " عملين مختلفين ، ومتناقضين ، فنجده يحدد الجنس الذكرى في الإنسان ، والثدييات ، وذبابة الدروسوفيلا.. بينما يحدد الجنس الأنثوي في الطيور ، والفراشات ، هذا بالإضافة إلى أن عدم وجود صبغي آخر مع الصبغي " X " (X0) يحدد الجنس الذكرى في الجراد والخنافس ؟!!

ربما يتبادر في أذهان بعض غير المتخصصين أن هذا الاختلاف الصبغي الذي يحدد الجنس يرجع إلى حدوث طفرات صبغية ... فإن هذا الاستنتاج أو التصور يخالف الحقيقة العلمية ، لان التغيرات التي يمكن أن تحدثها الطفرات الصبغية لا يمكن أن تعطى أو تنتج صبغيات جديدة مخالفة للنوع الأصلي وتعمل نفس عملها .

لا يمكن أيضا للطفرة أن تجعل نفس الكروموسوم أو الصبغي يعمل عملين مختلفين ومتناقضين (أي لا يمكن أن تؤثر الطفرة في الصبغي " y" الذي يحدد الجنس الذكرى في الثدييات وتجعله يحدد الجنس الأنثوي في الطيور) (بالإضافة إلى أن الطفرة لا يمكن أن تلغى صبغي يتم يالغائه تحديد الجنس الذكرى في الخنافس والجراد) .

إن الطفرة مثلاً تؤدى إلى خلل بالزيادة أو النقصان في صبغي أو أكثر خلال الانقسام الميوزى وتكوّن الأمشاج ، كما في حالتي (كلينفلتر)، و (تيرنر) في الإنسان وهما حالتان شاذتان ، فالإنسان الذكر الطبيعي يكون

تركيبه الصبغي (٤٤ + xy) أما في حالة كلينفلتر يكون تركيبه الصبغي (٤٤ + xxy) وهو ذكر شاذ أعضاؤه التناسلية ذكرية إلا أنها تكون ضامرة بالإضافة إلى أن عضلاته تكون أنثوية ، ولحسن الحظ يصبح هذا الشخص عقيما .

والأنثى الطبيعية يكون تركيبها الصبغي (٤٤ + xx) أما في حاله تيرنر يكون تركيبها الصبغي (٤٤ + x) وهى أنثى متخلفة عقلية . ومن المعروف علميا أن أغلب الطفرات تؤدى إلى ظهور صفات غير مرغوب فيها.

كما يجب علينا ملاحظة أن الطفرة في حالتي كلينفلتر ، وتيرنر حدثت في البويضة أثناء الانقسام الميوزى وتكوّن الأمشاج ، ولم تحدث الطفرة في الحيوان المنوي (الذكر) الذي يحدد الجنس .

ورغم أن الماديين لا يؤمنون إلا بالماديات ، إلا أننا نراهم يؤمنون باللاماديات عندما يتعلق الأمر بتدعيم وإثبات فكرة التطور ، ونشأة الكون وبدء الحياة .. فعندما يستعصي عليهم إثبات آرائهم ، وأفكارهم يبدلون إرادة ا لله ، وقدرته ، وعلمه الواسع بكلمات خاوية دانية ليس لها أي دليل مادي علمي مثل (الصدفة - بطريقة ما - بشكل ما - ....) أي أنهم يفسرون الظواهر المادية والحقائق باستنتاجات غير مادية حسب أهوائهم ، كما إنهم يفسرون الظواهر المفهومة المدركة باستنتاجات مجهولة مبهمة .

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

" سورة الفرقان - الآية ٤٣ "

قصة الكون في الكشف العلمي

ظل الكون بدون شكل عصورا غير معروفة بعد التدفق الانفجاري للمادة والطاقة من الانفجار الكبير " *Big Bang* " . لم تكن هناك مجرات أو كواكب أو حياة ، وكان الظلام العميق والكتيم في كل مكان كما ذرات الهيدروجين في الفراغ. وبدأت تتجمع هنا وهناك تراكمات أكثف من الغاز بشكل طفيف تماما ، ثم تكثفت كرات من المادة مشكلة قطرات مطر هيدروجينية ذات كتل أكبر من الشموس . في داخل هذه الكرات الغازية اشتعلت أول مرة النار النووية الكامنة في المادة ، وولد أول جيل من النجوم غامرا الكون بالضوء . ولم تكن توجد آنذاك أية كواكب تتلقى الضوء ، أو أية كائنات حية تعجب بتألق السماوات . وفى أعماق الأفران النجمية أنشأت كيمياء الدمج النووي عناصر ثقيلة من رماد احتراق الهيدروجين وهى مواد البناء الذرى اللاحق لكواكب وأشكال الحياة . وسرعان ما استنفدت النجوم الكبيرة مخزوناتها من الوقود النووي . وأعادت إذ تعرضت لانفجارات هائلة أغلب موادها إلى الغاز الرقيق الذي كانت تكثفت في الأصل منه . وهنا في الغيوم الكثيفة القاتمة بين النجوم تشكلت قطرات مطر جديدة مؤلفة من عناصر كثيرة ، وبدأت تولد أجيال تالية من النجوم ، وفى أماكن مجاورة نمت قطرات ذات أجرام أصغر كثيرا جدا من أن توقد نار نووية ، إنها القطرات في الضباب الموجود بين النجوم التي ستشكل الكواكب ، بينها كان عالم صغير مؤلف من الحجارة ، والحديد هو الأرض الأولى .

وأطلقت الأرض إذا تحجرت وازدادت حرارتها غازات الميثان والأمونيوم والماء الهيدروجين التي كانت محتبسة فيها ، مشكلة الجو الأولى

والمحيطات الأولى ، وغسل ضوء الشمس الأرض البدائية ، ورفع درجة حرارتها ، وأثار فيها العواصف ، والبروق ، والرعود . واندفعت الحمم من البراكين ، وأدت هذه العمليات إلى حدوث تمزق في جزيئات الجو الأولى . وما لبثت الشظايا أن عادت إلى السقوط معاً في أشكال أكثر تعقيدا انحلت في المحيطات الأولى . وبعد زمن صار للبحار قوام الحساء الساخن الذائب . وانتظمت الجزيئات ، وحدثت تفاعلات كيميائية معقدة على سطح الطين . وفي يوم ما نشأت جزيئة استطاعت بالمصادفة أن تصنع من نفسها عدة نسخ خرقاء منفصلة عن باقي الجزيئات في هذا الحساء ، ومع مرور الزمن نشأت جزيئات أخرى قادرة على نسخ ذواتها بشكل أكثر إتقانا ودقة ، وحازت التكوينات التي تلاءمت أكثر مع عمليات الاستنساخ اللاحقة على تفضيل الانتقاء الطبيعي ، فتلك التي نسخت نفسها بشكل أفضل أعطت نسخا أكثر. وازدادت رقة الحساء البحري الأولى .. نظرا لأنه كان يستهلك ويحول إلى تجمعات معقدة من الجزيئات العضوية الذاتية التكاثر . وهكذا بالتدريج ، وعلى نحو غير محسوس كانت الحياة قد بدأت .

ثم نشأت النباتات الوحيدة الخلية وبدأت الحياة تنتج غذاءها الخاص ، وحوّلت عملية التركيب الضوئي الجو ، وابتكر الجنس عندما تجمعت الأشكال التي كانت تعيش حرة منفردة لتصنع من ذواتها خلية معقدة ذات وظائف متخصصة ، وتطورت العضويات ذات الخلية الواحدة إلى أحياء متعددة الخلايا ، وظهرت الأعين والآذان ، وأصبح الكون قادراً على الرؤية والسمع ، واكتشفت النباتات والحيوانات أن الأرض تستطيع دعم الحياة . فانطلقت العضويات تغمغم وتزحف ، وتركض وتتعثر ، وتتزحلق ، وترفرف ، وترتعد ، وتصعد ، وتحلق . واندفعت حيوانات ضخمة جدا عبر الأدغال الكثيفة . وظهرت مخلوقات صغيرة ولدت حية عوضا عن نشوئها

في حاويات ذات أغطية صلبة ، وفى عروقها يجرى سائل يشبه ماء المحيطات الأولية . واستطاعت البقاء على قيد الحياة بواسطة خفة الحركة والحلية ، وبعد ذلك بوقت قصير قفزت حيوانات صغيرة تسكن الأشجار ونزلت إلى الأرض ، وأصبحت تقف على أقدامها ، وتعلمت استخدام الأدوات ودُجنت حيوانات أخرى ، بالإضافة إلى النباتات والنار ، واخترعت اللغة .

كان رماد الكيمياء النجمية ينبثق الآن في شكل الوعي، وفى خطوات لا تفتأ تسرع .. اخترع الكتابة ، والمدن ، والفن ، والعلم ، وأرسلت المراكب الفضائية إلى الكواكب والنجوم .. هذه هي بعض الأشياء التي استطاع الهيدروجين أن يفعلها خلال خمس عشرة مليار سنة من التطور.

يبدو ذلك مثل أسطورة ملحمية ، وهو كذلك حقا ، ولكنه ليس سوى مجرد وصف للتطور الكوني حسبما كشفه العلم في زمننا . كان من الصعب أن نمر في هذا التطور الذي يشكل خطرا علينا . ولكن من الواضح في أي قصة عن التطور الكوني أن آخر نواتج صناعة الهيدروجين الجراتية من مخلوقات الأرض كلها ، سيحظى بالتدليل . وقد يكون هناك في أماكن أخرى في الكون تحولات للمادة لا تقل أهمية عما جرى عندنا . ولهذا فنحن ننصت بتوق لأي طنين خافت في السماء [١] .

---

(١) د . كارك ساجان - " كتاب الكون " .

المعادلة الوهمية

عندما يخبرنا العلماء بأن الكون نشأ بالصدفة ، وأن جزيئات الصلصال استطاعت بالمصادفة مع الطبيعة أن تصنع الحياة ، على الرغم أنهم لم يؤكدوا بأن بلورات هذا الصلصال كانت حية .. وكأنهم يضعون ذلك في معادلة كيميائية تنص على :

طبيعة + صدفة ⟵ كون + حياة .

نسأل العلماء ....

أليس العلم يسائل نفسه ؟ .. والعلماء يستطيعون القيام بتجارب ورصد لاختبار صحة أفكارهم !

فلم لا نرى معملا يوضح لنا ما هية الصدفة .. مم تتكون ؟ وماذا تساوى.؟

ما نتيجة الطرح منها أو الإضافة إليها ؟ ، وكيف ندخلها مع عناصر التفاعل لتكون مركبا نريده ..؟ كيف نضعها في معادلة لنستفيد منها عن -قصد وتوجيه -في معاملنا لتعيننا على أبحاثنا ، واحتياجاتنا اليومية .. ونجعلها تقود سفينة بلا ملاح من المحيط إلى الخليج وسط الأمواج المتلاطمة والرياح العاتية؟! فهل للصدفة قوانين هندسية بارعة وذكاء خارق لتستطيع أن تنشئ الكون ، وتصنع الحياة ، وتحقق نظام الكون من مجرات ، وكواكب سيارة ، وجاذبية ، وإنبات ، وتكاثر ....

هل الصدفة قادرة أن تخلق بوعي كائنات محللة تتغذى على الكائنات الميتة وتحللها لتقوم بإعادة العناصر الهامة إلى التربة لتعمل على خصوبتها ،

وأن تحقق التوازن الغازي بين الأكسجين الذي يتنفسه الإنسان ، والحيوان ، وثاني أكسيد الكربون الذي يتنفسه النبات .

وهل الصدفة ذات علم واسع وقدرة فائقة لتخلق بحكمة بالغة دورة المياه في الطبيعة ، ودورات حياة الحشرات .....

وإذا افترضنا أن الصدفة أنشأت السمكة الأولى والثعبان الأول والطائر الأول والإنسان الأول ... فهل باستطاعتها أن تنشئ من كل كائن ذكر وأنثى ، وأن تغرز فيهما شهوة الجنس لتكون طريقة مُثلى لنشوء الأحياء ، والمحافظة على الأنواع !؟

كيف علمت الصدفة الطفل الرضيع أن يقوم بعملية الرضاعة دون أن يكون لديه فكرة مسبقة عن عملية أو ميكانيكية الرضاعة ؟
كيف علمت الصدفة الكتكوت أن يكسر البيضة من أضعف أجزاء قشرتها ويخرج ؟

وإذا كانت الجينات أو (*RNA*) لعبت دورا رئيسيا في عملية بدء الحياة .. فكيف تجمعت الخلايا بشكل ما ومختلف وبالصدفة لتجعل ورقة التوت تتحول إلى حرير عندما تأكلها دودة القز ، وإلى عسل عندما يأكلها النحل ، وإلى بعر عندما يأكلها الظباء .. ؟ ولتجعل الأسد مفترسا والحمام أليفا والعصفور مغردا ... ؟ كيف تجمعت الخلايا وكونت بالصدفة أجهزة دقيقة وفائقة مثل الجهاز العصبي وجهاز السمع والبصر ...... ؟
كيف جعلت الصدفة الأسد يأكل اللحم ، والغزال يأكل العشب .... ؟
كيف جعلت الصدفة الطبيعة تسير في توازن بلا خلل ؟

وإذا استطردنا في ذكر مثل تلك العجائب التي نعلمها فقط ،

وتوصل العلم إليها ما وسعتنا لذلك مجلدات عديدة .

وإذا افترضنا أن تلك العجائب حدثت بالصدفة .. فهل للصدفة ميزان ، وحكمة ، وتقدير شامل ، وعلم واسع ليبقى الإعجاز الكوني محفوظا ومستمراً بالشكل الذي نعلمه ، والذي لا نعلمه .

إن كل هذه التساؤلات والعجائب تمهد سبلا عديدة تقودنا إلى نفى ما جاء به العلماء من علم رديء زائف .. يقول لنا أن الكون ، والحياة أبناء الطبيعة ، والصدفة .. فما الصدفة إلا عمياء ، وفوضى ، وزوال .

ماذا تصنع الطبيعة والصدفة ؟

عندما نذهب إلى شواطىء بحار ومحيطات كوكبنا نتأمل بانتباه شديد الصخور التي أثرت عليها عوامل الطبيعة و التعرية من رياح وأمواج ...، وجعلتها تشبه بالمصادفة رأس إنسان ، أو أسد ، أو طائر .. مما لاشك فيه أن أشكال تلك الصخور تثير إعجابنا ودهشتنا ، ولكن ليس بالدرجة التي تجعلنا نفقد معها عقولنا .. لأننا ندرك أنها لا تدرك ..لا تتحرك .. عاجزة عن أن تبتعد بعيدا عن الأمواج التي تلاطمها أو أن تنحني وتنزوي في إحدى الأركان لتفادى الرياح العاتية .. لأننا ندرك تماما أن أشكال هذه الصخور ليست إلا أبناء الطبيعة والصدفة .

أبو حنيفة وحكايته مع الزنديق

أراد أحد الزنادقة من الخليفة أن يناقش إمام المسلمين أبا حنيفة النعمان في مسألة نشأة الكون .. فحددوا لذلك موعدا .. واحترمه الزنديق ، ولكن الإمام أبا حنيفة تعمد أن يحضر متأخرا عن الموعد المحدد ... ولما جلس مع الزنديق في مجلس الخليفة .. أخذ الزنديق يعنفه ويقول : كيف تكون إماما للمسلمين وتخلف المواعيد ...

ولكن أبا حنيفة كان داهية في الذكاء ، وقوة البديهة ، فاخترع له قصة يدق بها عنقه في مقالته ... فقال له : يا رجل .. دارى وراء النهر ، ولم أجد سفينة تنقلني إلى هذا الشاطئ حتى أحضر إليكم .. ولكن بينما أنا واقف إذا وجدت ألواحا خشبية طافية على وجه الماء ، فأخذت هذه الألواح تلتئم وتنضم حتى صارت سفينة فركبتها ، وانتقلت إليكم .

قال له الزنديق : هل هذا كلام عاقل أم مجنون ؟ .. هل يعقل أن هناك ألواحا خشبية طافية على وجه الماء ، فتصنع من نفسها سفينة ، فتركبها فتنقلك إلينا ؟!

قال له الإمام : إذا كان عقلك لم يتسع لهذا الشيء القليل .. أن يكوّن نفسه بنفسه .. فكيف تقول : إن هذه السماوات العلّيَ بما فيها من كواكب ، ونجوم ، وشمس ، وقمر .. وهذه الأرض الحافلة بأنواع المخلوقات.. كيف تقول : إنها خُلقت بنفسها .. ؟!

وهنا بهت الزنديق وانتصر الإمام .

(لو تحقق عصر الإنسان الكامل بالتأكيد ستسقط كلمات كثيرة من قاموسنا اللغوي .. عندما يسقط ما يقابلها من صفات بشرية ، ورغم أن هذه الصفات غير حميدة، إلا أننا بدونها لا نشعر بقيمة الصفات الحميدة . فمعرفة الشيء لا تتم إلا بمعرفة نقيضه .)

" أيها الإنسان كن نفسك .. ولا تكن شخصا آخر . "

الهندسة الوراثية .. ولعبة الميكانو

* تكنولوجيا الـــ DNA .
* قصة دوللي .
* أعضاء بشرية للبيع .
* معامل جينات لتحديد صفات الأبناء .
* الحرب بـ DNA معاد الاتحاد .

تكنولوجيا الـ ... DNA

لقد شهدت السنوات الأخيرة فيضا من الإنجازات في تكنولوجيا *DNA* معاد الاتحاد ، أي إدخال جزء من *DNA* لكائن حي ما إلى خلايا كائن حي آخر ، ومن الممكن أن تستخدم تقنية *DNA* معاد الاتحاد في العديد من المجالات منها تحويل بكتيريا البراز *E . coli* إلى بكتيريا مفيدة مجهزة وراثيا لإنتاج الأنسولين البشرى الذي يحتاجه يوميا ملايين البشر المصابين بمرض السكر .

بالإضافة إلى أنها تستخدم في تشخيص الخلل الوراثي إما قبل أو بعد الميلاد ، وتشخيص الأمراض المعدية مثل الالتهاب الكبدي الوبائي ، وتحضير لقاحات اكثر أمانا ، وإنتاج مركبات كيميائية بتسخير بعض الكائنات ، وإنتاج أنزيمات لاستخدامها في صناعة الألبان ، والتخلص من المخلفات العضوية الناشئة عن الصناعة ، ومازال الكثير من استخدامات الهندسة الوراثية مجرد أحلام إلا أن الأحلام سرعان ما تتحقق ، وكان من أحدث استخدامات الهندسة الوراثية هي إنتاج النعجة دوللي التي أصبحت اشهر نعجة في التاريخ ، وتم إنتاجها عن طريق الاستنساخ .

قصة دوللي

وقصة دوللي ببساطة شديدة – كما يشرح الدكتور عبد الفتاح عطا الله[1] " إن فريقا من العلماء بمعهد روزالين باسكتلندا قاموا لأول مرة في التاريخ بنسخ صورة حية طبق الأصل من نعجة بالغة وحية وتامة الصحة بأسلوب أطلقوا عليه " النقل النووي للخلايا " وتم فيه أخذ خلية واحدة فقط من ضرع الثدي في النعجة ، وأزالوا غشاءها الخارجي حتى حصلوا على نواتها الداخلية منفردة ، ثم أتوا ببويضة غير مخصبة من نعجة أخرى وقاموا بتفريغها من نواتها الداخلية حتى أصبحت فارغة من الداخل ، ثم قاموا بزرع نواة الخلية المأخوذة من ثدي النعجة الأولى داخل بويضة النعجة الثانية التي تم تفريغها من نواتها ، ثم قاموا بعمل عملية تشبه التلقيح أو الإخصاب الصناعي ، تم بموجبها إدخال نواة الخلية التي تم تعريتها من أغشيتها ، والمأخوذة من النعجة الأولى داخل البويضة التي تم تفريغها ، والمأخوذة من النعجة الثانية ، ثم عرضوا الاثنين لمواد كيماوية خاصة وتيار كهربي معين لكي يتم دمجها معا ، وبعد إتمام عملية الدمج نقلوا هذه الخلية العجيبة (المكونة من نواة الخلية المأخذوة من النعجة الأولى ، داخل البويضة المأخوذة من النعجة الثانية) ، إلى رحم نعجة ثالثة ، وهنا بدأت هذه الخلية التي تعتبر الأولى من نوعها في النمو والتحول إلى جنين أولى ثم جنين كامل ولد بعد ذلك بشكل طبيعي ، وهذه هي المرة الأولى التي تستخدم فيها خلايا الكائن الحي البالغ للحصول على نسخة كربونية كاملة منه مثلما يحدث في النبات بالضبط ، ورغم أن الأساس النظري لذلك كان قائما منذ فترة طويلة "[2]

(١) مصري الأصل : عمل أستاذا للهندسة الوراثية بجامعتي واشنطن وجورج ، ورئيسا لباحثي المناعة بالمعاهد القومية الأمريكية للصحة ، وحاليا المدير العام لمركز الهندسة الوراثية والجهاز الهضمي بالمنصورة (جريدة الأهرام ٧ / ٣ / ١٩٩٧).

(٢) لاحظ أن في إنتاج دوللي قد تم الاستغناء عن الذكر .

هناك العديد ممن يعارضون بشدة استمرار البحث في هذا المجال ، فهم يعتريهم القلق مما قد يحدث عند استخدام هذه التكنولوجيا لتحقيق أغراض أخرى تتنافى مع القيم الدينية، والعلمية ، والأخلاقية ، وخصوصا عند استخدامها في استنساخ البشر ، الأمر الذي يؤدى إلى خلل النسق الاجتماعي وتدمير العلاقات الإنسانية ، عندما لم يعد هناك حاجة لدور ملح للرجل ، وعندما يصبح بإمكان أي امرأة أو عذراء أن تنسخ طفلة منها على غرار تكنولوجيا النعجة دوللي ، مما يؤدى إلى اختلال التوازن الطبيعي بين الذكور والإناث ، واختلاط الأنساب، كما يمكن استنساخ عدد كبير من الأجنة ، وحفظها ، وتجميدها لاستغلالها في حالات نقل الأعضاء . ويترتب على ذلك أن يصبح الإنسان سلعة رخيصة ليس في نظر الآخرين فقط ، ولكن في نظر نفسه أيضاً ، حيث أن أعضاءه وأجهزته تتوافر بكثرة في ثلاجات معامل الهندسة الوراثية، وكرامته ملطخة بالآثام وفى وضع انكسار .

ملخص القول أن تكنولوجيا الهندسة الوراثية تمثل دورا يشبه دور المفاعل النووي الذي يساعدنا على حل الكثير من مشاكلنا العصرية ، ولكنه في نفس الوقت يهدد أو يعلن عن مخاطره الجسيمة التي تجعلنا غير قادرين على استنشاق نفس عميق تتسع له رئتانا .

معامل جينات لتحديد صفات الأبناء

يوجد الآن في العديد من المعامل نظم جينية يمكن برمجتها لإنتاج شريط قصير من DNA يحتوى على تتابع النيوكليوتيدات الذي نرغب فيه (أي حسب الطلب) وبناء على ذلك ليس مستحيلا في المستقبل القريب أن تذهب الأم إلى عيادات أو معامل الهندسة الوراثية ، وتملأ بيانات في استمارة توضح فيها رغبتها في شكل طفلها التي تريد إنجابه ، من حيث الشكل العام والمضمون (نسبة الطول – لون العينين – لون الشعر – لون البشرة – درجة الذكاء..) .

ولو فرضنا أن تقنيات الهندسة الوراثية سوف تستخدم فقط في أغراض حميدة ، وإنتاج أشخاص يحملون صفات مرغوب فيها ، والوصول إلى عصر الإنسان السوبر أو الكامل . " المتميز "

فان الأسئلة التي تتلاعب في أذهاننا .. ما عاقبة أن يحمل جميع البشر الصفات المرغوب فيها ؟ ما عاقبة تنحى الفروق الفردية عن دورها الحيوي على مسرح الحياة ؟ فقد بينت الأبحاث العديدة لعلم النفس أن السمات أو القدرات إذا قيست بين مجموعة من الأفراد الممثلين للمجتمع الأصلي فإن درجاتهم تخضع في توزيعها وانتشارها إلى ما يسمى بالتوزيع الاعتدالي.

وهل يسع لأي إنسان (في عصر الإنسان السوبر) أن يعتز بذكائه؟! هذا إذا عرف أحد أنه يحمل صفة الذكاء !! فمعرفة الشيء لا تتم إلا بمعرفة نقيضه ، فصفة الذكاء الضعيف تكشف عن صفة الذكاء العالي وتؤكده ! ، وبالشر يعرف الخير ، وباللون الأسود يعرف اللون الأبيض ... أجل لو تحقق عصر الإنسان السوبر بالتأكيد ستسقط كلمات كثيرة من قاموسنا

اللغوي ، عندما يسقط ما يقابلها من صفات بشرية ، ورغم أن هذه
الكلمات ، أو الصفات .. غير حميدة ، إلا أننا بدونها لا نشعر بقيمة
الصفات الحميدة التي نحملها ..

وإذا كان ما بنا من إيجابيات أو صفات مرغوبة يعطينا ميزة ، ودفعا
لمواجهة الحياة ، فإن السلبيات أو الصفات غير الحميدة عندما نحاول التغلب
عليها تعطينا أملا ومعنى آخر جميلا في الحياة ، هذا بالإضافة إلى أن الفروق
الفردية بيننا تقوم تلقائيا بسد فراغات المجتمع .

إن الصفات الحميدة التي سنحملها جميعا في عصر الإنسان السوبر
سوف تجعلنا كصوت آلة موسيقية ذات نغمة واحدة ، وتردد ثابت ،مما
يبعث داخلنا الشعور بالملل ، والاكتئاب ، والرغبة في طلب الوحدة ،
والانزواء حتى الموت .

فعلينا أن ندرك الآن وهذا بوسعنا وقبل فقدان الفرصة أن للفروق
الفردية التي بيننا لغزا أو حكمة تساوى الحياة ، وعلى علماء الهندسة
الوراثية أن يدركوا بأنهم مندفعون بكامل إرادتهم –وبدون أن يدروا –
بالبشرية نحو حافة الهاوية .

لا ندعو بذلك إلى ترك تكنولوجيا الهندسة الوراثية ، ولكننا ندعو إلى
التبصر والتأني والاختيار السليم الموفق للمجالات التي يجب أن تمارس فيها
تقنيات الهندسة الوراثية ، والتي تخدم البشرية ، وتدعم الحياة ، وأن يبتعد
العلماء عن المجالات التي لا تشبع إلا رغباتهم الجامحة ، ولا تنفخ إلا في
كبريائهم .. نحن جميعا لا نريد أن تكون الهندسة الوراثية في يد العلماء ..

كلعبة الميكانو في يد الأطفال

الحرب بـ DNA معاد الإتحاد

عندما صنع الصينيون البارود ، كان الغرض منه هو استخدامه في أغراض احتفالية، وجمالية ، كالمناسبات القومية السعيدة ، والأعياد الرسمية ، مما يضفي عليهم الفرحة والبهجة والمتعة ، ولم يكن يدر بخلدهم قط أنه سيأتي يوم ، ويُستخدم في الحروب ، والقتل بعد أن استوردته أوروبا في القرن الرابع عشر تقريبا .

وبالمطابقة .. فإن استخدام تكنولوجيا الهندسة الوراثية بلا ضمير ديني أخلاقي علمي ، يثير في المستقبل مشاكل أخلاقية جديدة للعالم ، ولا يمنع استخدامها الآن لصالح البشرية أن يكون استخدامها في المستقبل ضد مصالح البشرية ، وفى غايات خطرة مريبة .. وقد يضاف إلى أسلحة الدمار الشامل، والخطط الحربية سلاح مدمر جديد ، وخطة حربية بيولوجية .. اسمها الحرب بـ *DNA* معاد الاتحاد ، وربما يكون السلاح الوحيد والفريد فى المستقبل هو فقط سلاح الـ *DNA* معاد الإتحاد .

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٨ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾

قرآن كريم

الآيتان ٨ ، ٩ سورة الصف

المعطيات العلمية في الفكر البشرى والأديان

التشابه بين الفكر البشرى والتوراة والقرآن (*الجسد مكون من ماء وتراب * الماء أصل الحياة * طبيعة الشمس والقمر)

* الفرق بين النبي والعبقرى .

معطيات كونية لا توجد إلا في القرآن

* دوران الأرض ودوران الشمس .. وتعدد البنايات الكونية :. كروية الأرض .
* مصدر الماء على الأرض .
* الأرض ذات الصدع .
* تكوين الجنين .
* الغلاف الجوي للأرض.

معطيات التوراة بالنسبة للزمن تتعارض مع العلم الحديث

معطيات القرآن بالنسبة للزمن يتفق معها العلم الحديث

نقاط التشابه بين التوراة
والفكـــر البشـــري والقـــرآن

ذكر القرآن تصريحا أو تلميحا آيات كونيـة في غايـة الأهميـة، تتكلم عن كيفية نشأة الكون ، وطبيعة الأجسام السماوية ، وكيفية تكوين الجنـين الحيواني ، والجنـين النبـاتي ، وجنـين الإنسان ، وكيفية خلـق الإنسـان الأول ، والمـادة الـتي خلـق منهـا ، وأشـار القرآن إلى الكثير من أصول المعارف العلمية المختلفة ، والمتعددة .

في الواقع إن القليل من هذه المفاهيم الكونية القرآنية قد تم ذكرها مـن قبل في الديانات السماوية السابقة ، أو في نظريـات الفكـر البشـرى ، فعلـى سبيل التوضيح نعرض ثلاثة أمثلة :

*** المثـــال الأول :**

الجســـد مكـــون مـــن مـــاء وتـــراب...

نجد أن القرآن صرح بان الله خلق الإنسان الأول من الـتراب الممـتزج بالماء " طين متغير " .. (ويرجع ذلـك إلى اكـثر من ١٤٠٠عـام أي في نهايـة القرن السادس بعد الميلاد) .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾

" سورة الحجر – الآية ٢٨ "

﴿ وَلَقَـدْ خَلَقْنَـا ٱلْإِنسَـٰنَ مِـن سُـلَـٰلَةٍ مِّـن طِيـنٍ ﴿١٢﴾ ﴾

" سورة المؤمنون – الآية ١٢ "

نفس الحقيقة نجدهـا عنـد " هوميروس " اليونـاني صـاحب الملحمتين الشهيرتين الإلياذة والأوديسة ، عندما وصف الإنسان في التصويـر الشعري عنده .. بأنه مركب من نفس وجسد ، والجسد مكـون مـن مـاء وتـراب

يتحلل إليهما بعد الموت .

(ويرجع ذلك في أبعد الفروض إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد – أي منذ ٣٢٠٠ عام تقريبا) .

ونفس الحقيقة أيضا نجدها في نصوص العهد القديم " وعندئذ جبل يهوه الإنسان من طين الأرض ، ونفخ في أنفه نسمة حياة ، فصار الإنسان نفساً حية " " الإصحاح – الآية ٧ "

(ويرجع ذلك في أقرب الفروض إلى نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد .. بعد أن استقر الشعب اليهودي بأرض كنعان ، واستخدم الكتابة لنقل التراث والحفاظ عليه – بمعنى أن ذلك يرجع إلى ما قبل عصر هوميروس – أي منذ ٣٣٠٠ عام تقريباً)

*** المثال الثاني :**

الماء أصل الحياة ...

بدون عرض للتفاصيل الفنية والآراء المختلفة التي تتناول أهمية الماء، من حيث أنه السبب الأول في إبقاء حياة الكائن الحي ، أو من حيث انه يدخل في تركيب المادة الأصلية لتكوين الكائن الحي ، نجد أن القرآن يشير إلى قدم الماء وأهميته في حياة الأحياء ..

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

" سورة الأنبياء – الآية ٣٠ "

كما نجد في حديث لرسول الله ﷺ إشارة إلى قدم الماء[1] :

---

(١) وردت لفظ ماء فى القرآن منفصلة ٥٩ مرة ومتصلة بالضمائر أربعة أخرى ، وفى اربعة مواضع الظاهر أن معناها النطفة أو ماء التناسل ، أما فى المواضع الثمانية والخمسين الآخرى كلها فيدل لفظ الماء على ذلك الماء الذى نعرفه (ماء المحيطات والبحار والأنهار والأمطار ...) ، وبناء على هذا قد يكون المقصود بالماء –المذكور فى أحاديث الخلق– ماءً آخر يختلف عن أنواع الماء السابقة .

" كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السماوات والأرض ، وكتب في الذكر كل شيء . "

نفس الحقيقة أو الفكرة قد أعلن عنها الفيلسوف اليوناني طاليس (٦٤٠ - ٥٤٦ ق.م) عندما قال بأن الماء هو المادة الأولى والجوهر الأوحد الذي تتكون منه الأشياء ، ثم جاء انكسيماندر (٥٨٨-٥٢٤ق.م) وأعزى أصل الحياة إلى مزيج من الماء والشمس ، وهذه الفكرة لم يكن طاليس مبتدعها ، ولكن كانت مألوفة عند الأقدمين ، وإن كان يمتاز بأنه أعطى تفسيرا لها لا يسمح المجال هنا بعرض تفسيره .

نفس الفكرة التي تقول بقدم الماء نجدها في التوراة أيضا :
" في البدء خلق الله السماء والأرض خربة وخالية والظلمات تغطي اللجة وروح الله ترف على المياه "

*** المثال الثالث :**

طبيعة الشمس والقمر . . .

﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾

" سورة نوح - الآية ١٦ "

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ " سورة يونس - الآية ٥ "

﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾ " سورة النبأ - الآية ١٣ "

القرآن يصف الشمس على أنها سراج وهاج ، والسراج كما نعلم مشع للضوء .. والوهج لا ينتج إلا عن الاشتعال الشديد ، والمادة المشتعلة ينتج عنها بالضرورة ضياءً .. ويصف القمر على أنه نور ، والنور ليس بالضرورة أن يكون من مصدر مشتعل ، فقد ينتج عند سقوط ضوء من مصدر مشتعل على جسم معتم يقوم بانعكاسه مثل : حالة الشمس والقمر،

وقد يشع النور من جسم نوراني .

ونلاحظ أن القرآن يفرق تماما بين الضياء الذي بالضرورة مصدره جسم مشتعل ، والنور الذي يمثل حالة نورانية ، أو معنوية، أو مجازية ليس لها علاقة بالاشتعال على الإطلاق ، ومما يؤكد ذلك-فبالإضافة إلى ما سبق- نجد أن الآية رقم ٣٥ من سورة النور . تصف الطريق الحق أو المستقيم بالنور(المعنوي - المجازى) ولم تصفه بالضياء الناتج عن الاشتعال .

﴿ ۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ "سورة النور - الآية ٣٥ "

في الواقع لم يكن القرآن أول من ذكر هذه الحقيقة ، فقد تم ذكرها من قبل في الفكر البشرى ، عندما أدرك أفلاطون (٤٣٧ - ٣٤٧ ق . م) أن القمر يستمد نوره من الشمس ، وسبقه إلى ذلك الفيلسوف " أناكسيمنس " (٥٨٨ - ٥٢٤ ق . م) .. وعندما نقوم بالبحث عن هذه الحقيقة في التوراة لا نجد لها أثرا ، وبالأحرى نجد معطيات سطحية ، أو معطيات تنافى الحقيقة العلمية .

" وعمل الله المنيرين العظيمين - المنير الأكبر لحكم النهار ، والمنير الأصغر لحكم الليل " " الإصحاح الأول "

والمقصود بالمنيرين العظيمين هما الشمس والقمر ، فالشمس هى المنير الأكبر ، والقمر هو المنير الأصغر ، وعلى ذلك فالتوراة لا ترى فرقا بين الشمس والقمر ، إلا في الحجم فقط ، وإذا أخذنا الآية بالمعنى الظاهري نجد

أن معطياتها تقول بأن الشمس جسم كبير مشتعل منير والقمر أيضا جسم صغير مشتعل منير ، وهذا يتنافى مع الحقيقة العلمية ، كما أنه يشير إلى تحريف التوراة ، أما إذا أخذنا الآية بالمعنى المجازي لكلمة منير ، حيث أن الشمس والقمر يصدر عنهما نور - بصرف النظر عن طبيعة مصدره -نجد أن معطياتها سطحية وسلبية .. لأنها لم تصف إلا الشكل المظهري لكل من الشمس ، والقمر .. والذي يدركه كل إنسان ببساطه ، بالإضافة إلى أنها لم تشر إلى الحقيقة العلمية سواء من قريب أو من بعيد .

ربما يعتقد البعض .. أن هذا المثال الذي يوضح صحة الفكر البشري على التوراة ، يؤكد فكرة أن الفكر البشري كان سابقا على الأديان ، وبالتالي الأساطير سابقة على الأديان .

ولكن من يعتقد ذلك يجهل ما أصاب التوراة من تحريف ، وبأنها ليست أول كتاب سماوي ، فقد سبقتها رسالات سماوية عديدة ، بالإضافة إلى أن الآية (٣٥) من سورة النور - التي تشير إلى الفرق بين طبيعة الشمس ، وطبيعة القمر - مذكورة في القرآن على لسان نوح عليه السلام، الأب الثاني للبشرية ، وبالتالي فهي سابقة على الفكر البشري .

إن المثالين الأول والثاني ، يشيران إلى وجود نقاط تشابه بين التوراة والفكر البشري والقرآن ، وأن التوراة له السبق في ذكر معطيات كونية اثبت صحتها العلم الحديث ، ثم جاء الفلاسفة لطرح نفس المعطيات مما يجعلنا نفترض بأنهم اقتبسوها من التوراة أو الديانات السماوية القديمة ، وأن الديانات سبقت الفكر البشري ، وبالتالي سبقت الأساطير ، ثم جاء القرآن يذكر نفس المعطيات التي نحن بصددها .

ويشير المثال الثالث إلى وجود نقاط تشابه بين الفكر البشري والقرآن، وأن الفكر البشري سبق القرآن في عرض بعض المعطيات الكونية، كما يشير إلى وجود نقاط اختلاف بين معطيات الفكر البشري والقرآن التي تشابهت .. وبين معطيات التوراة التي اختلفت أو لم تتفق مع حقيقة طبيعة الشمس ، والقمر .

* النبي والعبقري ..

استغل المستشرقون نقاط التشابه بين القرآن والديانات السابقة والفكر البشري .. استغلالا سلبيا جعلهم يدعون بأن محمدا ﷺ لم يكن رسولا من قبل الله ، وأنه كان فقط مفكرا عبقريا وفيلسوفا حكيما ، قام بغربلة الأفكار الدينية ، والبشرية ، لاختيار القيم،والصحيح ،والثمين منها ، وأضافه إلى ما اكتشفه بفلسفته الخاصة ، وعبقريته النادرة ، وخياله المبدع، ثم قدم كل ذلك في كتاب محكم أطلق عليه اسم " القرآن "

إن الحقيقة التي غابت عن أصحاب هذه الدعاوى الكاذبة ، هي حتمية احتواء جميع الرسالات السماوية عبر العصور على نقاط تشابه مثل : قصص الأنبياء وبعض التشريعات ، والآيات الكونية التي تتكلم تصريحا أو تلميحا عن كيفية خلق الكون ، وخلق الإنسان .

ورغم تحريف هذه الرسالات - بالشكل الذي أوضحناه في مكان سابق - إلا أن التحريف لم يصب بعض الآيات التي اقتبسها البشر بوعي أو بدون وعي ، وأضافوها إلى أفكارهم[1] ، ومعتقداتهم ، ووثنيتهم ، وأساطيرهم ، وهذا لا ينفي قدرة العقل البشري على التفكير والتدبر

---

(١) على سبيل المثال نجد عند أفلاطون ظهور بعض أفكار الديانات والمعتقدات الشرقية القديمة عن العالم الآخر والحساب والثواب والعقاب ومعاقبة السيئة ومثوبة الحسنة بعشرة أمثالها . وقد تم ذلك عندما سافر أفلاطون إلى مصر وقضى بها زمنا في عين شمس واستفاد بملاحظة الديانة .

والاستنباط لحقائق كونية لم تكن مذكورة من قبل في الأديان ، مما يدل على التكريم الإلهي للإنسان ، فالأديان ليست كتبا علمية متخصصة ، ولكنها كتب تشريعية ، ومنهجية شاملة ، وما تذكره من معطيات علمية فهو على سبيل ضرب أمثلة لتوضيح الإعجاز الإلهي .

إن نقاط التشابه التي توجد بين الديانات السماوية ليست إلا دليلا على وحدانية المصدر ، كما أن نقاط التشابه بين الديانات السماوية ، وأفكار الفلاسفة ، لدليل على أن ميلاد الدين كان سابقا على ميلاد الأسطورة والفلسفة . والسؤال الذي لم يطرحه المستشرقون على مائدة مزاعمهم .. هو إذا كان محمد ﷺ اشتق رسالته من الأديان وأفكار الفلاسفة كما يدعون!.. فمن أين أتى بكونيات القرآن المذهلة الأخرى التي لا توجد إلا في القرآن والقرآن فقط ؟ وكيف استطاع تصحيح المفاهيم الكونية المغلوطة ، والمعتقدات المحرفة في الأديان ، بالإضافة إلى تصحيح المفاهيم الخاطئة في أفكار ونظريات الفكر البشري ؟ ويجب أن نضع في الاعتبار أن معطيات الفكر البشرى القديم -والتي ذكرت في القرآن – لم تكن حين ذاك معطيات مؤكدة ، بل كانت عبارة عن نظريات ، أو آراء قابلة للصدق ، أو الكذب .

فهل في طاقة أي إنسان (منذ أكثر من ١٤٠٠ عام) مهما كانت حكمته وعبقريته ، أن يغربل كل العلوم والآراء السابقة ، وأن يضيف إليها معطيات كونية جديدة ، وصحيحة بجانب المناهج السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية والنظام الإنساني الشامل والكامل ، والمنهج الذي يقدم للإنسان رؤية خاصة وفذة في كيفية تعامله مع الكون المحيط به من كائنات، ونبات وطير ،وأن يتكلم عن الحاضر والماضى،ويتنبأ عما يحدث في المستقبل

إن آراء ومعطيات أي إنسان مهما بلغ من العبقرية ، لابد أن تحتوي على نسبة من الأخطاء بجانب نسبة الصواب ، وهذا هو حال المفكرين والفلاسفة أما النبي المرسل من قبل الله ، فإننا نجد أن جميع معطياته لايشوبها الخطأ .

إن العلم اليقيني عبر الأزمنة يتفق تمام الاتفاق مع معطيات القرآن الكونية ، وكأنه يعلن بوضوح وقوة براءة محمد ﷺ من الدعاوى الباطلة والأكاذيب التي قيلت في شأن رسالته الإلهية ، وبالتالي يعلن عن الأدلة المادية على وجود الله ، وعلى أن القرآن حقا من عند الله ، ومحفوظ من التحريف بوعد إلهي ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩ ﴾
" سورة الحجر – الآية ٩ "

ليكون القرآن هو الكتاب السماوي الوحيد ، الذي لم ولن يصيبه التحريف. وفي هذا المقام أود أن أشير إلى نقطة هامة ، وجد خطرة تتلخص في أن بعض مفسري القرآن وبعض علماء المسلمين لم يتحرروا الدقة ، والشمولية عند محاولاتهم ربط المعطيات العلمية الحديثة بالمعطيات القرآنية .

فعلى سبيل المثال عندما توصل العلم الحديث إلى أن مكونات جسد الإنسان هي نفس مكونات التراب ، وأن القمر ليس جسما مضيئا ، وإنما يعكس ضوء الشمس ...

راح هؤلاء العلماء ، والمفسرون يعلنون ، أن هذه الحقائق ذكرت في القرآن فقط منذ أكثر من ١٤٠٠ عام ، وأن القرآن هو أول من ذكرها دون لفت النظر إلى وجودها في أديان أخرى مثل التوراة أو في الفكر البشري الذي سبق القرآن كما وضحنا سابقاً ، وهذا سواء كان عن قصد بعلم أو دون قصد بجهل فهو يسيء إلى القرآن الحافل بكثير من المعطيات الكونية الأخرى التي لا توجد إلا في القرآن فقط .

معطيات كونية لا توجد إلا في القرآن

دوران الأرض .. ودوران الشمس .. وتعدد البنايات الكونية .. وكروية الأرض

بادئ ذي بدء ، وقبل أن نعرض أمثلة لمعطيات كونية تشير إلى انفراد القرآن بذكرها ، وتشير أيضا إلى تطابق العلم الحديث معها ، يجب علينا أن نعرف المعطيات العلمية ، والمعرفية المختلفة ، التي كان يعتقدها الإنسان في عصر تنزيل القرآن،والتى تعددت منابعها من المصادر العلمية والفلسفية والدينية.

ورغم أن الفيثاغورثيين في القرن السادس ق . م ، توصلوا بالتعقل الفلسفي إلى نظرية دوران الأرض حول نفسها ودوران الكواكب حول الشمس .. إلا أن هذه النظرية لم يكن مسَلّما بها لعدم قدرة الفيثاعورثيين إثباتها ماديا ، ولذلك كان هناك قلة قليلة يقبلونها ، وأكثرية يرفضونها .. حتى دُفنت رغم صحتها .

وما يعنينا أن في عصر تنزيل القرآن ، كان يُعتقد أن الأرض ساكنة لا تتحرك، وأنها مركز الكون ، حيث أن كل الأجرام السماوية الأخرى – من كواكب ، ونجوم ، وشمس ، وقمر – تدور حولها ، وظل هذا الاعتقاد الخاطئ سائدا منذ " أرسططاليس " ومروراً بـ " بطليموس " حتى " كوبرنيكوس " في القرن السادس عشر بعد الميلاد ، عندما ظهر كتابه عام ١٥٤٣ م الذي وضح فيه نظريته عن دوران الأرض وباقي الكواكب حول الشمس .. محطما بذلك النظريات السابقة التي تدعى بأن الأرض ثابتة لا تتحرك ، وبأنها مركز الكون .

ولكن حين عرف رجال الكنيسة مغزى هذه النظرية بدأوا يحاربونها،

إذ كانت تتعارض مع تعاليمهم ، التي أقاموها على فكرة أن الأرض مركز الكون .

وبالرغم من أن " كوبرنيكوس " يعتبربذلك قد وضع نهاية حاسمة لفكرة مركزية الأرض للكون ، إلا أنه ظهر اعتقاد خاطئ آخر يقول : " بأن الشمس ثابتة لا تتحرك ، وأنها مركز الكون ، وهذا يعني عدم وجود عوالم سماوية أخرى " .

ظل هذا الاعتقاد سائدا حتى جاء " برونو " في أواخر القرن السادس عشر ، ونشر نظرية " كوبرنيكوس " وقام بتطويرها وقال : بأن الشمس تدور حول محورها ، وان كل نجم ماهو إلا شمس تضارع شمسنا ، وبذلك تصور أن هناك بنايات ، أو عوالم سماوية أخرى غير الشمس ، وربما يدور حولها كواكب أيضا ، كما أنه تصور أن هذه البنايات ، أو العوالم السماوية تتغير باستمرار ، وأنها ذات بداية ونهاية . ونتيجة لما توصل إليه " برونو " من حقائق .. قرر رجال الكنيسة إعدامه حرقا ، بسبب تعارض هذه الحقائق مع تعاليمهم ، وتم ذلك فى روما عام ١٦٠٠ م

ملخص القول : إن في عصر تنزيل القرآن ، كان يعتقد أن الأرض ساكنة لا تتحرك ، وأن ليس هناك أي بنايات سماوية أخرى غير الشمس .

- **ماورد فى القرآن بهذا الصدد :**

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾

" سورة الأنبياء – الآية ٣٣ "

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾

" سورة يس – الآية ٤٠ "

﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ .... ﴾

" سورة يس – الآية ٣٨ "

﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ " سورةالنمل–الآية ٨٨"

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ .... ﴾

" سورة الطلاق–الآية ١٢ "

تشير هذه الآيات إلى معطيات كونية مذهلة ، اتفقت معها يقينيات العلم الحديث ، فالآيتان الأولى والثانية – الآية ٣٣ من سورة الأنبياء والآية ٤٠ من سورة يس – تشيران صراحة إلى وجود فلك ، أو مدار مستقل لكل من الشمس والقمر ، وأنهما في حالة حركة ودوران، ويظهر ذلك في كلمة " يسبحون " .

كما تشيران بشكل غير مباشر .. إلى حركة الأرض ودورانها ، ويظهر ذلك في كلمتي " الليل والنهار " اللذين يتعاقبان على الأرض ، نتيجة دوران الأرض حول نفسها .

ويؤكد ذلك جملة " كل في فلك يسبحون " فكلمة "كل" تستخدم للجمع ، فإذا كان المقصود بالحركة ، حركة الشمس والقمر فقط ، لكانت الآية على صورة المثنى (كلاهما في فلك يسبحان) أذن (الليل والنهار) في الآية ، يرمزان إلى الأرض . بالإضافة إلى كلمة (كل) تشير إلى أن جميع الأجسام السماوية في حالة حركة ، ومما يؤكد دوران وحركة الأرض ، بوضوح .. الآية ﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ .. ﴾ فالسحاب كما معروف لا يتحرك بذاته ، ولكنه ينتقل محمولا على الرياح،

والآية تشير إلى أن الجبال مثل السحاب ليست ثابتة ، ولكنها تتحرك.. ليست بذاتها ، ولكن بواسطة الأرض التي تحملها .

وفي الحديث القدسي : قال رسول الله ﷺ : قال الله عز وجل: " يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار " ، وهذا الحديث أيضاً ، يشير إلى أن الزمن ناتج عن تقليب الليل ، والنهار ، وبالتالي فهو ناتج عن دوران الأرض .

وتشير الآية .. ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ..﴾

" سورة يس - الآية ٣٨ "

إلى حركة الشمس وعدم ثباتها .

وتشير الآية ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾

" سورة الطلاق - الآية ١٢ "

إلى تعدد البنايات أو العوالم الكونية .

وبالإضافة إلى هذا الأعجاز القرآني .. يوجد أعجاز نبوي يشير إلى كروية الأرض ، فقد كتب هرقل إلى النبي ﷺ : " أنك دعوتني إلى جنة عرضها السماوات والأرض ... فأين النار ؟ " فقال ﷺ: (سبحان الله، فأين الليل إذا جاء النهار). " أخرجه أحمد "

وكما نرى أن إجابة النبي ﷺ تعلن بوضوح أن وجود النهار لا يمنع وجود الليل ، وأنهما موجودان في وقت واحد ، فهما وجهان لعملة واحدة ، وهذا لا يتم حدوثه بشكل متماثل ، إلا إذا كانت الأرض كروية الشكل .

ويوجد آيات قرآنية تشير إلى كروية الارض ، فقد تناولها كثير من العلماء والمفسرين

مصدر الماء على الأرض

*** من أين أتى هذا الماء الذي كون البحار والمحيطات ؟**

كان الاعتقاد القديم ، أن البحار والمحيطات تكونت من تكاثف بخار الماء ، الذي يغلف جو الأرض في أول نشأتها – حينما كانت قشرتها ملتهبة –ثم بردت بفقد الحرارة والإشعاع . بيد أن العالم الأمريكي " وليم روبى " *W.Ruby* " قد تمكن بحسابات جيوكيميائية معقدة ، إلى أن ينقض هذه النظرية ، ويأتي بنظرية جديدة مؤداها .. أن جزءا كبيرا من ماء البحار والمحيطات ، قد انبثق من باطن الأرض نفسها .. من الماء المحتبس بين الصخور في الطبقات العميقة من القشرة الأرضية ، وأن هذا الماء المحتبس قد تكون خلال عملية بلورة الصخور السيليسية في الأحقاب الأولى من نشأة الأرض ، وانبثق من باطن الأرض بكميات مهولة ، وقد طفح على السطح على مراحل أو دورات نتيجة لحركات عنيفة اعتورت القشرة الأرضية .

- **ما ورد في القرآن بهذا الصدد ....**

إذا تأملنا الآية القرآنية الكريمة .....

﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ﴾

" سورة النازعات – الآيات ٣٠ : ٣٢ "

نجد أنها تشير تصريحاً إلى أن المصدر الأساسي للماء هو الأرض نفسها " أخرج منها ماءها ... " .

وبالإضافة إلى ذلك ، نجد أن الآية ذكرت الجبال بعد خروج الماء ، ومن المعروف جيولوجياً .. أن الجبال تكونت نتيجة الحركات الشديدة للقشرة الأرضية .. وإذا تأملنا الآية .....

﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا ، .. ﴾

" سورة لقمان – الآية ١٠ "

نجد أنها تشير إلى أن الرواسي (الجبال) بمثابة دعامات تعمل على توازن الأرض . ونستنتج من ذلك أنه قبل وجود الجبال – وخصوصاً الرسوبية – كانت الأرض في حالة عدم اتزان ، وعدم استقرار بسبب الحركات العنيفة للقشرة الأرضية .

وبالتالي فإن الماء خرج من باطن الأرض في مرحلة الحركات العنيفة التي اعتورت القشرة الأرضية ، ومن ثم نجد أن ما توصل إليه " روبى " بحساباته الجيوكيميائية المعقدة ، يتفق تماماً مع ما ذكره القرآن الكريم في هذا الصدد .

تضاربت آراء العلماء في قضية نشوء الجنين ، وكتبوا في ذلك العدد العديد من المجلدات ، وعندما تقدم العلم وتقدمت أدواته وتقنياته المساعدة.. استطاع العلماء الوصول إلى حقيقة نشوء الجنين والتي تتلخص في أن السائل الذكرى بعد أن يخترق البويضة يتحول إلى دم متجمد ، ثم يتحول الدم المتجمد إلى قطعة لحمية صغيرة ، ثم تتحول هذه القطعة اللحمية إلى عظام ، ثم تغطى هذه العظام باللحم ، ثم يتكون أخيراً الجنين .

وعندما نتأمل " الآية ١٤ من سورة المؤمنون " نجد أنها أشارت إلى هذه الحقيقة منذ أكثر من ١٤٠٠ عاماً .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ... ﴾

" سورة المؤمنون – الآية ١٤ "

---

(١) – النطفة : السائل الذكرى .

– العلقة : الدم المتجمد .

– المضغة : قطعة لحم بقدر مضغة الفم .

الأرض ذات الصدع

في إطار مواصلة بحث العلماء وإجتهاداتهم لإستكشاف آيات الله في الكون والأنفس يأتي هذا البحث الذى ألقاه الدكتور / زغلول النجار - استاذ علوم الأرض بجامعة الملك فهد بالظهران أمام المؤتمر العالمي السادس للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة بمدينة باندونج بأندونيسيا مؤخراً والبحث دار موضوعه حول حركة الألواح الأرضية في القرآن الكريم .

يقول الباحث : " إن الله تعالى يقسم بالأرض ذات الصدع مشيرا الى أن لفظة " الارض " قد وردت في القرآن الكريم بمدلولين محددين :

- أولهما الكوكب الارضى بمجمله .
- وثانيهما ذلك الغلاف الصخرى الذى نحيا عليه . ومن الواضح ان المدلول الأخير هو المقصود في الآية الكريمة ﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ ﴾ " الطارق ١٢ " وقد فهم الأولون من هذا الوصف القرآنى للأرض بأنها " ذات الصدع " معنى انصداعها (اى انشقاقها) عن النبات وهو فهم صحيح فقد قال ابن عباس "رضى الله عنهما " في تفسير : ﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ ﴾ هو انصداعها عن النبات . بمعنى ان الله تعالى يقسم بالأرض التى من صفاتها انها تنصدع وتنشق فيخرج منها مختلف صور النبات وما تحمله تلك النباتات من خيرات وثمار لولاها لم تستقم الحياة على الأرض .

وقد اكتشف العلماء أو اخر الستينات من هذا القرن أن الغلاف الصخرى للأرض ممزق بشبكة من الصدوع الطولية والعرضية تقسمه الى ١٢ لوحا كبيرا وعدد من الألواح الصغيرة وأن تلك الصدوع تنتشر

أكثر ما تنتشر فى قيعان البحار والمحيطات ولكنها توجد ايضا فى القارات بنسبة أقل . وأنها تتصل فيما بينها مكونة شبكة هائلة من الصدوع التى تمزق الغلاف الصخرى للأرض الى عمق يتعدى ١٠٠ كيلو متر " وهو متوسط سمك الغلاف الصخرى للأرض " ممتدة لمئات الآلاف من الكيلو مترات طولاً وعرضاً ، ويضيف انه قد ثبت بالملاحظة المباشرة ، وغير المباشرة .. إن تلك الكتل الصخرية الضخمة التى تعرف اليوم باسم ألواح الغلاف الصخرى للأرض تطفو فوق نطاق من الصخور شبه المنصهرة التى تتميز بكثافة أعلى من كثافة الألواح الطافية فوقها وبحالة واضحة من اللدونة والمرونة جعلت ذلك النطاق يعرف باسم نطاق الضعف الأرضى . وهذه الألواح تنزلق بسهولة ويسر فوق مادة نطاق الضعف نتيجة لدوران الأرض حول محورها أمام الشمس .

ومن المشاهدات الثابتة اليوم ان مراكز كل من الهزات الأرضية ، والصولات البركانية تحتشد حول الصدوع الفاصلة بين ألواح الغلاف الصخرى للأرض ، أما عند خطوط تباعدها حيث تتسع قيعان البحار والمحيطات ، فإن الصهارة الصخرية تندفع من نطاق الضعف الأرضى الموجود تحت الغلاف الصخرى للأرض مباشرة لتملأ الحيز الناشىء عن تباعد تلك الألواح مكونة شريحة من صخور بازلتية جديدة تضاف لقاع المحيط الذى يمارس عملية الاتساع ، ثم تنشق هذه الشريحة البازلتيه فى منتصفها من جديد بفعل عملية التصدع المستمرة التى يتعرض لها الغلاف الصحرى للأرض عبر الصدوع التى يتسع على طولها قاع المحيط ، ويندفع بصفيها متباعدين عن بعضهما البعض ليمتلىء الحيز الناشىء بينهما بصهارة بازلتية جديدة تيبس لتتصدع فى وسطها من جديد لتتكرر العملية بمعدلات بطيئة ، ولكنها تؤدى فى النهاية الى استمرار اتساع قيعان البحار والمحيطات

أقصى مدى ممكن ، ثم تتوقف عملية الاتساع وتعاود البحار والمحيطات الى الانغلاق بعملية معاكسة حتى تتلاشى تماما من فوق سطح الكرة الأرضية . واختتم الباحث حديثه فقال ان صدوع الأرض لعبت ولا تزال تلعب الى اليوم دورا مهما فى تكوين الغلاف الصخرى للأرض الذى يشكل للقارات، وقيعان البحار ، والمحيطات .

كما عملت تلك الصدوع ولا تزال على إثراء ذلك الغلاف الصخرى بمختلف العناصر ، والمركبات على هيئة العديد من المعادن ، والمركبات التى تندفع مع الحمم البركانية الصاعدة الى سطح الأرض عبر تلك الصدوع التى لولاها ما استقامت الحياة على الأرض ، فسبحان الذى خلق الأرض ذات الصدع . وجعل من صدوعها ممرات تندفع خلالها الصهارات الصخرية التى كونت مادة كل من القارات ، وقيعان البحار، والمحيطات ، وأثرها عبر تلك الصدوع بمختلف الخيارات ، وقسم غلافها الصخرى الى العديد من الألواح بواسطة تلك الصدوع الطولية والعرضية التى تكون شبكة تحيط بالكرة الأرضية بأسرها وتمتد الى أعماق تزيد على مائه كيلو متر ، وسبحان الذى جعل من تحرك ألواح الغلاف الصخرى للأرض وسيلة من وسائل تكون الجبال التى تثبت تلك الألواح ذاتها فى طبقة الضعف الأرضى .

في هذا القرن فقط اكتشف علماء الفلك أن الضغط الجوى ينخفض كلما ارتفعنا فى السماء كما يقل مستوى غاز الاوكسجين فى الجو كلما ارتفعنا الى أعلا ، ولا يستطيع الانسان ان يصل الى ارتفاع عشرين ألف قدم مثلا الا اذا كان مزودا بالاوكسجين وفى طائرة مكيفة الضغط ولولا ذلك لأحس بالاختناق بسبب قلة الاوكسجين ، وقلة الضغط الجوى وطبقات الغلاف الجوى ستة وكلما صعد الانسان الى طبقة منها أحس بثقل فى صدره وضيق فى تنفسه وتقرأ كتاب ا لله تعالى فى ذلك :

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

" سورة الأنعام – الآية ١٢٥ "

وهذه اشارة علمية صريحة الى هبوط الضغط الجوي ، وقلة غاز الاوكسجين كلما صعدنا الى طبقات الجو العليا وقد قال ا لله تعالى: (كأنما يصَّعَّد فى السماء) بتشديد الصاد والعين ولم يقل (كأنما يصْعَد فى السماء) بتسكين الصاد وفتح العين وإنما جاء بنفس اللفظ وجعل له مقاطع صوتيه فى الجرس الموسيقى للكلمة لتصور تزايد الصعوبة في التنفس كلما صعد الإنسان من طبقة فى الغلاف الجوي الى طبقة أعلى منه .

وماذا جاء عن الحقائق العلمية المكتشفة فى عصرنا الحاضر عن الفضاء الكوني في القرآن الكريم ؟

أما فوق الغلاف الجوى للأرض فهناك الفضاء الكوني حيث لا توجد جاذبية ولا هواء ولا ضوء وبالتالى فالإنسان اذا وصل الى هناك فسوف يجد نفسه بلا وزن ، ويطير رأسا على عقب وإذا أمسك كوبا من الماء يجد الكوب يطير منه ولا ينسكب الماء منه .. ولا يوجد هواء فيشعر بالاختناق واذا صاح بأعلى صوته لا يخرج منه صوت ولا يسمع زميله القريب منه فيصير ، وكأنه اصم فاقد لحاسة السمع ، ويجد نفسه فى ظلمه حالكة فلا يرى شيئا ويشعر كأنه اعمى ولم يكتشف العلماء هذه الحقائق الا منذ سنوات معدودات ، إلا أن القرأن الكريم ذكر عقاب الكفار قال تعالى:

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥)﴾

" سورة الحجر – الآيتين ١٤ ، ١٥ "

وحرف (لو) حرف امتناع لامتناع ، وقوله سبحان وتعالى (فظلوا فيه يعرجون) يدل على صعودهم الى ما فوق الغلاف الجوى للأرض (لقالوا إنما سكرت أبصارنا) لأنهم من شدة الظلمة لن يروا شيئا (بل نحن قوم مسحورون) لأنهم سيجدون أنفسهم فى حالة انعدام وزن ، وعمى ، وصم.. لذلك يظنون أنهم سحروا فهم لم يردوا ما يجدونه فى الفضاء الكونى الى سنن الله الكونية ، ولكن يردونه الى السحر دلالة على أن أعداء الدين قوم جبلوا على عدم التصديق لأى حقيقة من الحقائق الكونية وغيرها.

وهكذا يؤكد د . أحمد شوقى لكل ذى عقل رشيد ان القرآن الكريم سابق بالحق ابدا ، وفي غير حدود ، وما من حقيقة علمية تكتشف فى أى عصر من العصور ، إلا ويجد العلماء عنها فى القرآن الكريم ، والسنه المطهرة بيانا وعلما ."

إن القرآن حافل بكثير من المعطيات الكونية أو العلمية التي تجعله معجزة ليس لها مثيل . مثل : السماوات والأرض ، والشمس والقمر ومنازله ، والمشارق والمغارب ، والرياح اللواقح والعقيم ، والسحاب الثقال والمركوم والمنبسط ، والرعد والبرق ، والبحار والأنهار ، والجبال الراسيات والجدد والبيض والحمر والغرابيب السود ، وعالم النبات والحيوان والحشرات ....

وهذه كلها أمثلة على سبيل المثال وليس الحصر .

معطيات التوراة بالنسبة للزمن تتعارض مع العلم الحديث ...

عندما نقوم بدراسة المعطيات الكونية في التوراة ، نجد أن بعضها يتعارض بوضوح مع العلم الحديث ، مما يدل على أن التحريف قد أصاب التوراة .

فعلى سبيل المثال : تنتهي رواية الخلق ، بالآيات الثلاثة الأولى من الإصحاح الثاني (فأكملت السموات والأرض بكل جندها (كذا) وفرغ الله في اليوم السابع وقدسه ، لأنه فيه استراح من جميع عمله للخلق ، هذه مبادئ السموات والأرض حين خلقت .)

" تذكر رواية التوراة -ودون أي غموض - تمام الخلق في ستة أيام يتبعها يوم الراحة - يوم السبت - وذلك بالتجانس مع أيام الأسبوع .ولقد رأينا أن هذه الطريقة في السرد ، التي استخدمها كهنة القرن السادس قبل الميلاد ، تستجيب لنيات الحض على ممارسة سبت الراحة ، فعلى كل يهودي أن يستريح يوم السبت[١] كما فعل الرب بعد أن عمل طيلة أيام الأسبوع الستة .

أن كلمة " يوم " كما يفهم من التوراة ، تعرف المسافة الزمنية بين أشراقيين متواليين للشمس ، أو غروبين متواليين ، وذلك بالنسبة لسكان الأرض .

---

(١) أتت كلمة " سبت " من فعل في العبرية يعنى الارتياح ، وتشير التوراة إلى أن الله أصابه التعب بعد أن أتم عملية الخلق ولذا استراح - والقرآن ينفى هذا التحريف (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب)" سورة ق - الآية ٣٨" وكلمة لغوب بمعنى تعب وإعياء .

إن اليوم وقد تحدد بهذا المعنى ، يرتبط وظيفياً بدوران الأرض حول نفسها ، وواضح تماماً أنه من المستحيل منطقياً أن نتحدث عن الأيام بهذا المعنى الذي تحدد ، على حين أن العملية المركبة التي ستؤدى إلى ظهورها ، - أي وجود الأرض ودورانها حول الشمس - لم تكن قد أنشئت بعد ، عند أولى مراحل الخلق ، وذلك بحسب رواية التوراة[٢] .

وإذا تغاضينا عن النقد الذي وجهه "بوكاي" لأيام الخلق في التوراة ، وفرضنا أن عملية الخلق تمت في ستة أيام كأيامنا ، فإنه من المستحيل علمياً أن تتكون الأرض والكواكب والشموس والنجوم ... في ستة أيام مضروبة في أربعة وعشرين ساعة ، دون أن تمر بمراحل جيولوجية وفترات زمنية طويلة - وإن كان ذلك ليس مستحيلاً على قدرة الله -ولكنه سبحانه أراد أن يتم خلق السموات والأرض على مراحل زمنية ، وجيولوجية طويلة .

---

(٢) كتاب " دراسة الكتب المقدسة " موريس بوكاى .

معطيات القرآن بالنسبة للزمن
يتفق معها العلم الحديث

﴿ ..إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ..﴾
"سورة الأعراف – الآية ٥٤"

﴿ ..وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ..﴾
" سورة الحج – الآية ٤٧ "

﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾
" سورة السجدة – الآية ٥ "

﴿ .... فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾
" سورة المعارج – الآية ٤ "

ما | الزمن ؟ وهل للزمن أنواع متعددة ؟ وهل هو كمي أم وظيفي أم الاثنان معاً ؟ وهل قبل الزمن كان يوجد زمن ؟ وهل بعد الزمن يوجد زمن ؟

اهتم المسلمون بدراسة الزمن ، لأنه عنصر أساسي من عناصر التاريخ ، ووجدوا أن في القرآن أنواعا من الزمن أبرزها أولاً : " الزمن الكوكبي " الذي أوجده الله بعد خلق الكون ، من نجوم ، وشموس ، وكواكب ، والذي ينتج عن دوران الأرض حول نفسها ، وحول الشمس فيحدد لنا الأيام والسنين . ، ثانياً:" زمن ما قبل الزمن الكوكبي":

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ..﴾
" سورة ق – الآية ٣٨ "

فمفهوم يوم في هذه الآية مختلف عن اليوم الذي نتعامل بـه في حياتنـا . سواء من الناحية الكمية أو من الناحية الوظيفية .. فقد يكونـه ألف سنه أو أكثر أو أقل . ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

" وزمن ما بعد الزمن الكوكبي " وهو زمن يوم القيامة الذي يـأتي بعـد دمار الزمن الفلكي (الكوكبي) ....

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ... ﴾

" سورة إبراهيم – الآية ٤٨ "

يختلف زمن يوم القيامة عن الزمـن اليومـى الحـالى فقـد يكـون مقـدره ألف سنة أو خمسين ألف سنة . ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ " سـورة السـجدة – الآيـة ٥ "

﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾

" سـورة المعـارج – الآية ٤ "

ويوجد أنواع أخرى مثل الزمن النفسي وغـيره ولكننـا لسـنا بصددهـا فيما نتناوله الآن .

*** كان الله ولم يكن شئ قبله ...**

عندما نريد أن نصنع شيئاً ما ، لابد من استهلاك زمن معين ، والفـرق الجوهري بين تكنولوجيا اليوم والأمس ، هو أن تكنولوجيا اليـوم استطاعت أن تصنع الشيء في زمن أقل بكثير من ذي قبل ، ومن المؤكد أن تكنولوجيـا الغد سوف تصنع نفس الشيء في زمن تنازلي ، ولكن من المستحيل أن نصنع شيئاً في زمن قياسه صفر .. فلا وجود لشيء بدون زمن لأن الوجود لابد أن يلزمه زمن .

والسؤال الذي يجب أن يطرأ على أذهاننا .. هو إذا كان وجود الأشياء يلزمه زمن .. فمن أين أتت المواد الأولية المكونة للكون ، قبل وجود الزمن الفلكي الذي نشأ بعد خلق الكواكب ؟

اتفقنا أن قبل الزمن لم يكن للأشياء وجود ، أي مع انعدام الزمن لا وجود إلا للعدم المحض ، وبالتالي قبل الزمن لا يوجد زمن .. إذن لابد من مُوجد له صفات خاصة ، وقدرته تعمل في زمن قياسه صفر ، وأن يحول العدم إلى وجود ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

كان الله ولم يكن شيء قبله .. فالزمن حادث ، مخلوق كباقي المخلوقات، أوجده الله ، وهو سبحانه خارج قوانين وأبعاد الزمن .. حاشا أن يؤثر المخلوق في صفات الخالق .

بدأ أول نوع من الزمن في الظهور ، بعد أن أوجد الله المواد الأولية التي خلقها في عدم وجود الزمن ، وهي المواد التي سوف يتكون منها الكون.

وهذا الزمن ، ربما وجد نتيجة حركة ودوران المواد الأولية ، وربما نتيجة أسباب أخرى مجهولة ، وإذا كانت كيفية وجود هذا الزمن مجهولة، فمن المؤكد أن هذا النوع من الزمن يختلف تماما عن الزمن الذي نعرفه اليوم ، سواء من الناحية الكمية أو الوظيفية ، ولأنه أول أنواع الزمن .. فيمكننا أن نطلق عليه أسم " الزمن الأولى " .

هذا الزمن الأولي ، كان له دور رئيسي في جعل المواد الأولية للكون تكتسب سمات وخصائص جديدة ليتسنى لها أن تتحد مع بعضها ، ثم تتحول إلى طاقة جبارة كامنة في المادة ، تنتظر الفرصة المناسبة أو الوقت المحدد

لتُحدث انفجاراً عظيماً ، تتفتت وتتبعثر المادة على أثـره في الفضـاء الكونـي المهول ، ولذا يمكننا أن نطلق على هذا الزمن الأولى أسما آخر وهو " زمـن ما قبل الانفـجـار " .

أثناء انفجار المادة وبعده ، وجد نوع ثان من الزمن يختلف عن الزمـن الأولي في الكم والوظيفة ، ويتميز عنه بأنه تحـولي .. أي غـير مسـتقر بسـبب حاله عدم استقرار المادة المترتبة على قـوة الانفجـار ، ولـذا يمكننـا أن نطلـق عليه الزمن الانفجاري ، أو زمن ما بعد الانفجار ، أو الزمن التحولي .

بعـد الانفجـار تكونـت الكواكـب والنجوم والشـموس والبنايـات السماوية المختلفة ، وظهر النوع الثالث من الزمـن ، وهـو الزمـن الكوكـبي الذي ينتج عن دوران الكواكب حول نفسها ودورانها حول الشمس ، وهو الزمن الذي نعرفه اليوم ، ولكنه في البـدء كـان يختلـف إلى حـد مـا عـن اليـوم الحالي ، بسبب عدم استقرار الكواكب وعشوائية دورانها .

من المعطيات السابقة يمكننا أن نستنتج أن أيام أو مراحل الخلق الستة المذكورة في الآية ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴾ مقسمـه علـى الزمـن الأولـي " زمـن مـا قبـل الانفجار " بالإضافـة إلى الزمـن التحـولي " الانفجـاري " بالإضافـة إلى الزمـن الكوكـبي حتـى استقراره ، وأن كلمـة يـوم في " الآيـة " لا تعـني اليـوم الـذي نعيشـه علـى كوكبنا ، و إنما تعني فترة ، أو مرحلة زمنيـة طويلـة ، بالإضافـة إلى اختـلاف كـل مرحلـة مـن المراحـل الستة عـن الأخـرى ، مـن حيـث الكـم الزمـني ، والوظيفة ، أو الدور المسند إليها .

إن لم يكـن مـن المستحيل فمـن الصعـب تحديـد عمـر الكـون ، لأن الدراسات التي يقوم بها العلماء لتحديد عمر الكون .. مبنية على تحديـد

عمر الكون منذ الزمن الانفجاري ، وليس منذ الزمن الأولي الذي يجهله العلماء، وقد يصعب عليهم معرفته أو تحديده .

والزمن عامة يتميز بأنه كمي ووظيفي ، وبأنه بنّاء وهدّام في آن واحد، يفني مرحلة وتولد به مرحلة أخرى، تموت نجوم ، وتولد نجوم ، تموت أشجار وتحيا بذور ، يدب الضعف في شيخ عجوز ، وتنمو القوة في شاب صغير .

فالزمن ما هو إلا بقاء وفناء .. ميلاد وموت ..

حياة وذبول

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾

قـــرآن كريـــم

" ســـورة الطـــلاق - الآية ١٢ "

(من ظلم شبرا من أرض طوقة الله من سبع أرضين)

حديث شريف

الكــــــون

* حقيقة السبع أرضين والسبع سماوات
* هل حدد القرآن ترتيباً في خلق السماوات والأرض
* ملاحظـــات هامـــة وخطـــيرة علـــى تفســـير الآيـــات من ٩ : ١٢ من ســورة فصلـــت .
* المفهوم الجديد لكلمـة ســماء .
* المفهـوم الجديـد للكلمـــات " بـارك فيهـا – قـدر فيهـا – أقواتها – ما في الأرض ... " .
* اختلاف فيه إعجاز قرآني .
* متى تم تكوين السبع أرضين ؟
* المصاحبة الزمنية وترتيب خلق البنايات الكونية .
* اللمسات الأخيرة في اللوحة الكونية .

حقيقة السبع أرضين والسبع سماوات

إن البحث في حقيقة الأرضين السبع والسماوات السبع لأمر في غاية التعقيد والتشابك إلى الحد الذي قد يصعب على العقل البشرى احتواؤه ، بالإضافة إلى الصعوبات التي تواجه الباحث عندما يحاول استنباط هذه الحقيقة من آيات القرآن الكريم ، فكلما توصل الباحث لنتيجة ما – من خلال آية قرآنية – يجد آيات أخرى تفتح له أفاقاً جديدة ، تجعله يفند ما توصل إليه ، وهكذا حتى أن الباحث يجد نفسه يلغى استنتاجاته واحدة تلو الأخرى ، وهذا وإن دل إنما يدل على معجزة القرآن ، كما أنه يشير إلى أن الباحث بنظرته الشمولية يرغب في الوصول إلى الحقيقة ، وتوجد صعوبة أخرى تتمثل في كيفية عرض الباحث لاستنتاجاته المنطقية أمام الآخرين ، ومدى قناعتهم بها، فالمألوف – وإن كان غير منطقي– يتفوق في كثير من الأحيان على غير المألوف رغم منطقيته .

من أعجاز الآيات الكونية في القرآن أنها تتسع للمعطيات العلمية الخاصة بكل عصر ، ولذلك فإن تفسيرها اختلف فيه العلماء من عصر إلى عصر ، فعلى سبيل المثال : عندما قرر علماء اليونان أن أفلاك السيارات (الكواكب) سبعة، راح الرازى يفسر السماوات السبع المذكورة في القرآن بأنها هى أفلاك تلك الكواكب السبع ... ولما كان عندهم فلك ثامن للنجوم الثوابت ، وفلك تاسع محيط هو مصدر حركة الأفلاك السبع ، رجح الرازى أن تحديد القرآن عدد السماوات بأنها سبع ، لا يستلزم ألا تكون أكثر من سبع (أي أن العدد سبعة يدل على كثرة التعدد وليس الحصر) .

والرازى كما نرى أخفق عندما حاول مطابقة القرآن بالعلم أو العلم بالقرآن ، وعندما اكتشف ذلك وحاول تصحيحه لم ينتقل إلا من إخفاق لإخفاق .. فالرازى لم يشطب محاولته التي تقول بأن أفلاك السيارات السبع هي السماوات السبع ، ولم يول تفكيره شطر محاولة أخرى ، ولكنه أسس رأيه أو ترجيحه الجديد على محاولته الأولى ، وراح يقول " إن تحديد القرآن عدد السماوات بأنها سبع لا يستلزم ألا تكون أكثر من سبع " ، أي أنه لم يعد النظر في محاولته الأولى ، ولكنه أضاف للآية تفسيراً جديداً ، وهذا جائز .. ولكنه هنا يفتقد المنطقية ، لأن ليس صحيحا أن السماوات السبع هي فقط أفلاك السيارات السبعة أو التسعة ، فهناك بعيداً في الفضاء السحيق أجرام أخرى، كما أنه ليس منطقياً أن حدود كل سماء من السماوات السبع –أو الأكثر من السبع على حد قول الرازى – تمثل حدود كل فلك من أفلاك الكواكب .

إن ما يشفع للرازى أنه في الحقيقة كان سابقاً لعصره ، فمن منا في ظروف ومعطيات عصر الرازي العلمية البسيطة كان يقول بقول الرازى ... بالإضافة إلى أن الرازى بمحاولاته هذه ، أعطانا درسا في كيفية الثبات على الإيمان .. فعندما يعارض العلم آية في القرآن فإن ذلك لا يدعو إلى تزعزع إيماننا ، لأن هذا التعارض لم يكن له إلا مدلولان .. أما أن يكون هذا العلم ظنيا (غير يقيني) أو أن الآية تحمل أكثر من تفسير بالشكل الذي يزيد من معجزتها وهذا إذا كان العلم يقينياً ، وصدق الرازي حين قال : (ما من حرف ولا حركة في القرآن إلا وفيه فائدة . ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل إلى أكثرها ، وما أوتى البشر من العلم إلا قليلا) .

لم يكن الرازي المفسر الوحيد الذي حاول أن يربط العلم بالقرآن ، فعندما توصل علماء الجيولوجيا بأن الأرض تتكون من سبعة طبقات قال

بعض المفسرين ، بأن هذه الطبقات السبع للأرض قد أعلن عنها القرآن من قبل في الآية ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ .. ﴾ ولكن ثبت عدم صحة هذا التفسير .

من الواضح أن هؤلاء العلماء لم يختلفوا في حقيقة وجود السبع أرضين، ولكنهم اختلفوا في طريقة التعبير عن الشكل الذي يوجد عليه السبع أراضين .. في حين أننا نجد بعض علماء التفسير لهم وجهه نظر أخرى، ويحدثنا عنهم " محمد على الصابوني " في كتابه " صفوة التفاسير " فيقول : (لا خلاف بين العلماء على أن السماوات سبع ، وأما الأرض – فأختلف فيها– فقيل أنها سبع أرضين لظاهر الآية ، والحديث الصحيح : " من ظلم شبرا من أرض طوقة ا لله من سبع أرضين " وقيل أنها أرض واحدة ، وأن المماثلة ليست في العدد ، وإنما في الخلق والإبداع .. أي مثلهن في الإبداع والإحكام ، والأول أظهر وا لله أعلم .)

إن هذه الاجتهادات المختلفة للعلماء عن طبيعة وحقيقة السبع سماوات والسبع أرضين ، جعلتني أتجرأ بحذر على البحث عن حقيقة وطبيعة السبع سماوات والسبع أرضين .. نسأل ا لله أن يهدينا إلى الطريق القويم ، ويجعل من أمرنا رشداً .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا .. ﴾

" سورة الأنبياء – الآية ٣٠ "

أختلف العلماء في تفسير هذه الآية على مر العصور اختلافاً منطقياً ، حيث أن كل مفسر أو عالم استعان بمقتضيات وظروف عصره .

قال الحسن وقتادة : كانت السماوات والأرض ملتصقتين ، ففصل ا لله بينهما بالهواء . وقال ابن عباس : كانت السماوات رتقاً لا تمطر ،

وكانت الأرض رتقاً لا تنبت ففتق هذه بالمطر ، وهذه بالنبات .

ظل تفسير الحسن وقتادة وابن عباس سائداً لعصور طويلة ، ويؤخذ به حتى الآن ، وعندما توصل العلماء في نهاية القرن العشرين - وبعد التخبط في عدة نظريات عن نشأه الكون - إلى نظرية الانفجار الكوني الكبير *Big-bang* التي تقول : بأن الكون كان في البدء مادة واحدة متماسكة ، ثم حدث لهذه المادة انفجار فنتج عنها الكون بما فيه من أجرام ، ونجوم، وشموس ، وكواكب .... ، فسر علماء الدين الآية تفسيراً جديداً يتطابق مع نظرية الانفجار الكوني الكبير ، وبذلك يتضح أن القرآن سبق العلم الحديث بحوالي ١٤٠٠عاماً في الإعلان عن حقيقة نشأه الكون .

و الجدير بالملاحظة هو تشابه تفسير الحسن ، وقتادة - إلى حد ما - مع نظرية الانفجار الكوني الكبير .

وليس من العدل أن نحكم على ابن عباس بأنه تجرأ بشكل خاطئ على تفسير الآية ، فالحقيقة أن الآية تتسع لعدة تفسيرات مما يجعلها معجزة دائمة وخالدة على مر العصور .

وأرى أن الآية تشير إلى تفسير مختلف عن التفسيرات التي عرضناها، لا أدري لماذا لم يتنبأ به علماء التفسير على مر العصور ، وهو أن السماوات كانت سماء واحدة ، ثم فتقها الله إلى سبع سماوات .. وكذلك الأرض كانت واحدة ، ثم فتقها الله إلى سبع أرضين ، وهذا التفسير ليس في حاجة إلى المعطيات العلمية الحديثة ، ولكنه يستند إلى قاعدة يتبعها المفسرون عند تفسير القرآن ، وهي أن القرآن يفسر بعضه البعض ، فإذا تأملنا الآيات التالية نستنتج ذلك .﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ .. ﴾
" سورة الطلاق - الآية ١٢ "

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ... ﴾ " سورة فصلت – الآية ١١ "

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

" سورة البقرة – الآية ٢٩ "

تشير الآيات السابقة إلى أن السماء كانت واحدة ، ثم جعلها الله سبع سماوات .. وكذلك الأرض ، وبالإضافة إلى هذه الآيات يوجد حديث يشير إلى نفس التفسير (عن أبى مالك ، وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مُرّة الهمدانى عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ في قوله : " ثم استوى إلى السماء " قال : " إن الله تعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً قبل الماء ، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع ، ثم أيبس الماء فجعله أرضا ، ثم فتقها فجعلها سبع أراضين*.."

وبصرف النظر عن طبيعة المادة التي خلق الله منها الكون ، بالإضافة إلى ضعف بقية هذا الحديث –ولذا لم أذكر بقيته – إلا أن هذا الجزء من الحديث يمكننا الاستشهاد به لصالح قضية تعدد الأرضين ، لعدم تعارضه مع الأحاديث الصحيحة التي تقول بقدم الماء ، وكذلك عدم تعارضه مع الآيات القرآنية التي تقول بتعدد الأرضين .

* ينظر فى تفسير الطبري ، فى تفسير " ثم استوى إلى السماء " وأخرجه ابن خزيمة فى " التوحيد " .

إذا كنا قد سلمنا بقضية تعدد الأرضين ، يجب أن ننتبه إلى ملحوظة في غاية الأهمية والخطورة ، وهى أن كلمة أرض المذكورة في الآيات القرآنية ، لا تعني دائماً الأرض التي نعيش فيها فقط كما يشير المفسرون،بل قد يكون المقصود بها في بعض الآيات إحدى الأرضين السبع ، وهى أرضنا أو الأرض الأم ((الأولى) التي انفتق منها السبعة أرضين ، فعلى سبيل المثال يوضح المفسرون دائما أن الأرض في الآيتين ...

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ..﴾

" سورة الأنبياء – الآية ٣٠ "

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا .. ﴾

" سورة الطلاق – الآية ١٢ "

المقصود بها الأرض التي نعيش فيها ، متجاهلين بقية السبع أرضين أو الأرض الأم التي تكون منها السبع أرضين ، رغم إشارة الآيات والأحاديث إلى ذلك، ورغم محاولاتهم مطابقة الآية " ١٢ من سورة الطلاق " بنظرية الانفجار الكوني العظيم ، فإن مفهوم الأرض في هذه الآية لدى المفسرين لم يتغير ، فعندما نقرأ تفسيراتهم يصل إلينا الشعور بأن أرضنا – بنفس الشكل التي هى عليه الآن باستثناء الماء والمرعي – كانت ملتصقة بالسماء ، أليس في هذا بعد عن جوهر ومضمون نظرية الانفجار الكبير ، وعما تشير إليه الآيات والأحاديث .

هل حدد القرآن ترتيباً في خلق السماوات والأرض ؟

يشير القرآن في عدد قليل من آياته إلى خلق الأرض قبل السماء ، ويشير في عدد كثير من آياته إلى خلق السماوات قبل خلق الأرض ، وهذا العرض القرآني جعل قضية ترتيب خلق السماوات والأرض في حجم اللغز ، على مر العصور ، وكان من السهل على قارئ القرآن أن يكتشف هذا الاختلاف ، مثل الرجل الذي سأل ابن عباس في ذلك ، ولذا قام علماء التفسير، والباحثين بمحاولات ، للتوفيق بين هذه الآيات وفك رموز اللغز القرآني في عملية خلق الكون ، ونعرض هنا بإيجاز بعض هذه المحاولات .

عن أبن عباس قال : جاء رجل فقال : يابن عباس إني أجد في القرآن أشياء تختلف على فقد وقع ذلك في صدري . فقال ابن عباس : أتكذيب ؟ قال ما هو بتكذيب ولكن اختلاف .قال : فهلم ما وقع في صدرك . فقال له الرجل : أسمع الله يقول ... فذكر أشياء ، ثم قال : وفي قوله : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾ " سورة النازعات – الآيات ٢٧ :٣٠ " فذكر في هذه الآية خلق السماء قبل الأرض " وقال في الآية الأخرى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ... ﴾ " سورة فصلت – الآية ١٠ " فذكر في هذه الآية خلق الأرض قبل السماء ، فقال أبن عباس :

أما قوله : ﴿ أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ ﴾
فإنه خلق الأرض في يومين قبل السماء ، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ، ثم نزل إلى الأرض فدحاها " ، قال : ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى[1] .

نلاحظ أن ابن عباس حدد في تفسيره ترتيباً في خلق السماوات والأرض يتلخص في : أن ا لله خلق الأرض (أرضنا) أولاً ، (ثم خلق بعد ذلك السماوات ، ثم أخرج من الأرض الماء والمرعى .

وتفسير ابن عباس بهذا الشكل يعتريه بعض القصور كما سنوضح في موضع لاحق .

قال ابن جزي في التسهيل في علوم التنزيل) وهذه الآية :
﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ " سورة البقرة – الآية ٢٩ "
تقتضي أنه خلق السماء بعد الأرض ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾ ظاهره خلاف ذلك ، والجواب من وجهين : أحدهما أن الأرض خلقت قبل السماء ، ودحيت بعد ذلك فلا تعارض . ، والآخر تكون (ثم) لترتيب الأخبار .

كتب موريس بوكاي في إحدى فقرات كتابه القيم (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) عنوانا يلخص فيه ما توصل إليه بعد دراسة الآيات الكونية في القرآن ، والعنوان هو (القرآن لا يحدد ترتيباً في

---

(١) أخرجه البخاري .

خلق السماوات والأرض) وفي هـذه الفقـرة وبعـد أن عـرض بوكـاي عـدة أرقام لآيات كونية قرآنية ، قال : " الحقيقة باستثناء سـورة النازعـات ٧٩ ، ليـس فـي القـرآن أي فقرة تحدد بشكل قاطع أي ترتيب : فحرف العطـف " و " هو الذي يربط طرفي الجملة ، أو كلمة " ثم " الـتي رأيناهـا في الفقـرة المذكورة أعلاه (يقصد الآيات من ٩ :١٢ مـن سـورة فصلـت) والـتي قـد تشير إلى التوالي أو إلى مجرد وضـع عنصر بجانب آخـر -لاحـظ تـأثره بـابن جزي عندما قال أن " ثـم " لـترتيب الأخبـار – وقـد بـدا لي أن هنـاك فقـرة واحدة في القـرآن تقـرر بشـكل واضـح وجـود ترتيـب في أحـداث الخلـق ، ونعنى بذلك الآيات من ٢٧ إلى ٣٣ من سورة النازعات :

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ " سورة النازعات – الآيات من ٢٧ : ٣٣ "

إن وصف نعم ا لله الدنيوية على الناس ذلك الذي يعبر عنه القـرآن، في لغة تناسب مزارعا أو بدويـا مـن شبه الجزيـرة العربيـة ، مسبوق بدعـوة للتأمل في خلق السماء ، ولكن المرحلة التي مد فيها ا لله الأرض ، وأخصبهـا تأتي بالتحديد زمنياً بعد إنجاز عملية توالى الليل والنهـار . المذكـور هنـا إذن هو مجموعتان من الظواهر جزء منها أرضي ، والآخـر سمـاوي ، وقـد حـدث ذكرهما في اتصال مع الآخر . وبالتالي فذكر هاتين المجموعتـين مـن الظواهـر يعني أن الأرض كانت بالضرورة موجودة قبـل أن تمـد ، وعليـه فقـد كـانت موجودة حين بنى ا لله السماوات . وينتج مـن هـذا فكـرة المصاحبـة الزمنيـة

لنمو كل من السماوات والأرض بشكل تتداخل فيهما الظاهرتان . وبناء عليه فلا يجب أن نرى أي دلالة خاصة في إشارة النص القرآني إلى خلق الأرض قبل السماوات أو خلق السماوات قبل الأرض : فمواضع الكلمات لا تبين وجود ترتيب تحقق الخلق في إطاره ، إلا أن تكون تفصيلات أخرى معطاة " .

من الواضح أن " موريس بوكاي " بذل مجهوداً جباراً يستحق عليه الثناء والتقدير ، وبخاصة فكرة المصاحبة الزمنية لنمو كل من السماوات والأرض بشكل تتداخل فيهما الظاهرتان ، وبذلك أوجد بوكاي تفسيراً منطقياً ومقبولاً حل به لغز الآيات الكونية القرآنية التي تذكر بعضها أن الأرض خُلقت قبل السماء ، وبعضها الآخر يذكر أن السماء خُلقت قبل الأرض .

أستثنى بوكاي من القرآن الآيات من ٢٧ :٣٣ من سورة النازعات وقال بأنها الوحيدة التي تقرر بشكل واضح ترتيباً في أحداث الخلق .

ومع احترامي لرأى بوكاي إلا أنه يوجد عدة اعتبارات ، تتلخص في أن هذه الآيات إن لم تكن تعرض المرحلة الأخيرة فقط من عملية الخلق -كما سنوضح ذلك فيما بعد- فهي تعرض أحداث الخلق بشكل مختصر وموجز .. بينما إذا تأملنا الآيات من ٩ : ١٢ من سورة فصلت نجد أن رغم غموضها ، إلا أنها تعرض بالتفصيل مراحل خلق الكون منذ البدء ، وحتى إتمام عملية الخلق ، فهي في طياتها تحمل لغز أو أسرار خلق الكون .

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

" سورة فصلت – الآيات ٩ : ١٢ "

ونلاحظ أيضاً ، أن هـذه الآيات تشير إلى فكرة المصاحبة الزمنية لخلق كل من السماوات والأرض ، فبعد أن خلق ا لله الأرض أستوى إلى السماء الدخانية ، أي أن السماء الدخانية كانت قد خُلقت من قبل ، بمعنى أنها خلقت في نفس زمن خلق الأرض ، ولكن نموها أو تحولها إلى سبع سماوات ، أجله ا لله بعد إتمام خلق الأرض ، ومباركتها ، وتقدير أقواتها .

في الواقع أن الآيات من ٩ : ١٢ من سورة فصلت كانت تشغل تفكيري منذ عدة سنوات ، عندما شعرت بأنها تحمل الكثير من المعجزات بجانب الكثير من الغموض أيضاً ، وهذا دفعني للبحث عن كيفية خلق الكون في الأساطير ، والفلسفة ، والأديان ، والعلم .. لدرجة أن عقلي كان يتسع خياله بأثقال المعرفة ، وبنورها أيضاً .. حتى ومض بصورة أو بتصور يرسم عملية خلق الكون .. أهناك أجمل من أن يعيش الإنسان ست أحقاب أو أزمنة مختلفة ، من خلال زمن قدره ست دقائق أو ست سنوات.. دقائق التخيل ، وسنوات البحث والدراسة .

في الواقع أن الآيات من ٩ : ١٢ من سورة فصلت ، والآيات من ٢٧-٣٢ من سورة النازعات ، تخبط فيها كثير من المفسرين ، عندما

حاولوا حل أسرارها ، وفك لغز ترتيب عمليـة خلـق السـماوات والأرض ، فهذه الآيات بحق حيرتهم كثيراً ، ووضعتهم أمام معضلات عويصة .. فنجـد أن " ابن جزي " قال بأن " ثم " الـتي جاءت في هـذه الآيـات تفيـد ترتيب الإخبار (أي لا تفيد ترتيـب عمليه الخلق) كمـا نجـد " بوكـاي " اسـتعار نفس الحل وقـال بـأن " ثـم " تشـير إلى التـوالي أو إلى وضـع عنصـر بجـانب آخر (أي أن " ثم " لا تفيد ترتيب عملية الخلق) .

أما ابن عباس " فقد كان له رأى آخر ، قـائم علـى أن الآيـات أو " ثم" تفيد ترتيب الخلق .. فعندما سـأله رجـل - كمـا وضحنـا سـابقا - عـن الاختلاف الذي يقع بين آيات سورة فصلت التي تشير إلى خلق الأرض قبـل السماء ، وآيات سورة النازعات التي تشير إلى خلق السماء قبل الأرض .

فأجابـه ابـن عبـاس قـائلاً : "بـأن ا لله خلـق الأرض قبـل السـماء ثـم استوى إلى السـماء فسـواهن ، ثـم نـزل إلى الأرض فدحاهـا " ، وقـال : ودحاهـا " أن اخـرج منهـا المـاء والمرعـى " .

تتلخـص إجابـة " ابـن عبـاس " -الـتي ترتـب عمليـة الخلـق - في أن خلق الأرض تم أولاً ، ثم بناء السـماوات ، ثـم دح الأرض ، وخـروج المـاء والمرعى . ولكن هذا التفسير يتعارض مع الآيـة ٢٩ مـن سـورة البقـرة ، إذا سلمنا بأنها تشير إلى خلق جميع ما في الأرض من أنهار ، وأشجار ، ودواب قبل بناء السماوات السبع ....

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

" سورة البقرة - الآية ٢٩ "

بالإضافة إلى هذا ، نجد أن إجابة ابن عباس تتضارب مع تفسيره للآية ١١ من سوره فصلت ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ ، حيث قال ابن عباس في تفسير هذه الآية ، بأن الله تعالى قال للسماء (أطلعي شمسك ، وقمرك ونجومك، وقال للأرض شققى أنهارك ، وأخرجي شجرك ، وثمارك ، فإذا عرفنا أن الآية التالية لهذه الآية تشير إلى بناء السبع سماوات ..

﴿ .. فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ .... ﴾

نستنتج بناء على تفسير ابن عباس ، أن خروج الماء والمرعى تم قبل بناء السماوات السبع ، في حين كانت إجابته للرجل السائل ، بأن خروج الماء والمرعى تم بعد بناء السماوات السبع .

وإذا بحثنا عن رأي سيد قطب بصدد هذه القضية ، نجد له رأياً مخالفاً وغريباً في كتابه " في ظلال القرآن " فهو يقول في تفسير الآية ٢٩ من سورة البقرة ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

" ويكثر المفسرون ، والمتكلمون هنا الكلام عن خلق الأرض والسماء، يتحدثون عن القبلية والبعدية ، ويتحدثون عن الاستواء والتسوية، وينسون أن " قبل وبعد " اصطلاحان بشريان لامدلول لهما بالقياس إلى الله تعالى ، وينسون أن الاستواء ، والتسوية اصطلاحان لغويان يقربان إلى التصور البشرى المحدود صورة غير المحدود ... ولا يزيدان.: وما كان الجدل الكلامي الذي ثار بين علماء المسلمين حول هذه التعبيرات القرآنية ، إلا

آفة من آفات الفلسفة الإغريقية ، والمباحث اللاهوتية عند اليهود والنصارى، عند مخالطتها للعقلية العربية الصافية ، وللعقلية الإسلامية الناصعة ، وما كان لنا نحن اليوم أن نقع في هذه الآفة ، فنفسر جمال العقيدة، وجمال القرآن بقضايا علم الكلام !! " .

وبصرف النظر عن الظروف والأحداث التي تسببت في ظهور الفرق الكلامية ، بالشكل الذي جعل نشأتها تبدو وكأنها رد فعل طبيعي ، وبصرف النظر عن الدور الإيجابي الذي قام به المتكلمون ، أبان ظهورهم للرد على المغالين – على الرغم من أن ذلك أوقعهم أيضاً في المغالاة والسلبيات– فإذا كنا نتفق مع رأي سيد قطب في قضية الاستواء والتسوية، إلا إننا نختلف مع رأيه في قضية " القبلية والبعدية " ، تلك القضية التي تناولها عظماء المفسرين ، أمثال ابن عباس الذي أطلق عليه الرسول ﷺ " ترجمان القرآن " بصرف النظر عن عدم توفيقه في طرح أو تفسير بعض القضايا التي عرضناها ، والناتجة عن بشريته والمعطيات العلمية البسيطة في عصره .

وإذا سلمنا بشكل مطلق لقول قطب أن " قبل وبعد " لفظان بشريان لامدلول لهما بالقياس إلى ا لله تعالى) .

فهذا يجعلنا نتراجع عندما نربط العلم اليقيني ببعض الآيات الكونية ، كدليل مادي على وجود ا لله وعلى حقيقة أن القرآن كلمة ا لله .

فعلى سبيل المثال : عندما وصل العلم إلى أن ظهور الماء ، والأشجار في الأرض كان يسبقه حتما إتمام بناء الكون – وخصوصاً وجود الشمس– راح المفسرون يربطون تلك الحقيقة العلمية بآيات سورة النازعات كدليل مادي على أن القرآن كلمة ا لله ، حيث أن الآيات ٢٧ : ٣٢ من سورة

النازعات تشير إلى تلك الحقيقة العلمية .

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ﴾

فإذا كان " قبل وبعد بشكل مطلق لفظين بشريين لامدلول لهما بالقياس إلى ا لله تعالى، فكيف عسانا إذن ، نربط تلك الحقيقة العلمية بآيات سورة النازعات ، لسنا نختلف مع " سيد قطب " أن " قبل وبعد " لفظان بشريان لا مدلول لهما بالقياس إلى ا لله تعالى ، ولكننا نختلف معه في تطبيق هذه القاعدة بشكل مطلق أو بالتحديد في الآيات التي تتكلم عن ترتيب خلق السماوات والأرض من حيث القبلية والبعدية . لأننا لو طبقنا هذه القاعدة على آيات ترتيب خلق السماوات والأرض ، فإن ذلك سوف يحرمنا من إظهار إعجاز قرآني ، قد يتمثل - جزء منه - في المصاحبة الزمنية بين خلق كل من السماوات والأرض ، كما سنوضح فيما بعد .

فهذه القاعدة الذي يعلنها قطب ، نؤمن بها حين يتجلى مفهومها مثلاً ، في الآيات التي تشير إلى الصفات الإلهية مثل :

﴿ .. إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا .. ﴾ ﴿ ..وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا .. ﴾

" سورة النساء - الآية ٥٨ " " سورة الأحزاب - الآية ٧٣ "

فمدلول لفظ " كان " ، عندما يستخدمه البشر ، يعني شيء حدث في الماضي وانتهى ، أما هذا اللفظ لامدلول له بالقياس إلى ا لله تعالى .

ملاحظات هامة وخطيرة

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ .. ﴾

" سورة فصلت – الآية ٩ "

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ﴾

" سورة فصلت – الآية ١٠ "

يذكر | الصابوني في كتابه " صفوة التفاسير "–بالنسبة لتفسير الآية ١٠ من سورة فصلت – : أي أكثر خيرها بما جعل فيها من المياه والزروع والضروع ، ويقول مجاهد : أي خلق أنهارها وأشجارها ودوابها .

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا .. ﴾

" سورة فصلت – الآيتان ١١، ١٢ "

قال ابن عباس أن الله تعالى قال للسماء : أطلعي شمسك ، وقمرك ونجومك ، وقال للأرض شققي أنهارك ، وأخرجي شجرك وثمارك . أما الزمخشرى يقول : أراد الله تكوينهما " السماوات والأرض " فلم تمتنعا عليه .

إن تفسير هذه الآيات بهذا الشكل ، وهذا الترتيب يوجد به عدة ملاحظات هامة وخطيرة .

الملاحظة الأولى :إذا تأملنا تفسير الآيتين ١٠ ، ١١ نجد كلاً منهما يقول : بأن الأرض أخرجت أنهارها ، وأشجارها ، وثمارها ، أي أن كلاً منهما يحمل نفس المعنى ، ومن ثم نستنتج حتمية أن يكون تفسير أحدهما غير موفق ، وربما نكتشف أن تفسير كل من الآيتين غير موفق .

الملاحظة الثانية : ابن عباس في تفسيره للآية (١١) يقول : " بأن الله تعالى قال للسماء : أطلعي شمسك ، وقمرك ، ونجومك " ونستنتج من هذا التفسير أن الشمس لم تكن وجدت قبل هذا الأمر الإلهي للسماء ، وبما أن الأرض خلقت قبل هذا الأمر الإلهي للسماء - كما توضح ذلك الآية " ٩ " - أذن الأرض خلقت قبل خلق الشمس ، وهذا التفسير يتعارض مع الحقيقة العلمية التي تقول : " بأن الأرض إحدى كواكب المجموعة الشمسية، والتي تدور في فلكها ، وتحت تأثير جاذبيتها ، فالأرض إذن تابعه للشمس ، هذا بالإضافة إلى النظرية العلمية التي تقول : " بأن الكواكب - ومنها الأرض - تكونت من رماد النجوم والشموس " ونستنتج من ذلك ، أن الشمس خلقت مع خلق الأرض أو بالأحرى خلقت فبل خلق الأرض .

وبغض النظر عن تلك الحقيقة العلمية ، فإن تفسير ابن عباس للآية " ١١ من سورة النازعات " - والذي يشير بأن الشمس لم تكن وجدت قبل هذا الأمر الإلهي للسماء ، كما وضحنا أو على الأقل لم يكن تم بناؤها بالشكل الذي يجعلها تقوم بدورها الفعال على الأرض - من شأنه أن يجعل تفسير العلماء للآية " ١٠ من سورة النازعات " يواجه مشكلة ، حيث إنهم يقولون في تفسيرها بأن " الله خلق في الأرض أنهارها ، وأشجارها ، وثمارها " وهذا التفسير يجعلنا نتساءل .. كيف حدث كل ذلك - من خلق أنهار،وأشجار ،وثمار- قبل وجود الشمس . أو قبل إتمام بناؤها.

حيث أن العلم اليقيني توصل إلى أن مرحلة تهيئة الأرض لإخراج الماء

منها ونشوء حياة لابد وحتماً أن يسبقها مرحلة إتمام بناء الكون من نجوم وشموس ... بشكل عام أو وجود الشمس بشكل خاص .

والقرآن قد سبق العلم في عرضه لهذه الحقيقة الهامة ، فنجد أن الآيات من ٢٧ : ٣٢ من سورة النازعات تشير إلى تلك الحقيقة بوضوح تام ، يقول ا لله تعالى :

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ﴾

هذه الآيات كما هو واضح تقول بأن دح الأرض وخروج الماء والمرعى ، كان بعد ظهور الشمس . وهذا ما تتفق معه الحقيقة العلمية تماماً.

ومع ذلك ليس باستطاعتنا أن نقول بأن تفسير العلماء للآية "١٠ من سورة فصلت " غير موفق ، لأنهم لم يشيروا إلى وجود الشمس في هذه المرحلة أو عدم وجودها ، مع أنهم أرتضوا تفسير ابن عباس .

الملاحظة الثالثة : يتفق تفسير ابن عباس للآية " ١١ من سورة النازعات " مع تفسير العلماء للآية "١٠ من سورة النازعات " في نقطة في غاية الخطورة والأهمية ، وهي أن خلق الأنهار ، والأشجار ، والدواب ، كان قبل بناء السماوات السبع ، حيث إن الآيتين " ١٠ ، ١١ من سورة النازعات " يسبقان الآية " ١٢ " من نفس السورة، التي تشير إلى مرحلة بناء السماوات السبع.

وهذا يتفق مع تفسير الآية ٢٩ من سورة البقرة ......

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾ حيث أنها تشير – على حد قول العلماء – إلى أن خلق الأنهار ، والأشجار ، والدواب ، وجميع ما في الأرض كان قبل بناء السماوات السبع .

ولكن عند مقارنة ذلك بالآيات من " ٢٧-٣٢ من سورة النازعات" ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا (٢٩) وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا (٣١) وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا (٣٢)﴾

والتي فسرها ابن عباس بأن الله استوى إلى السماء فسواهن ، ثم نزل إلى الأرض فدحاها ، أي أخرج منها الماء والمرعى .

فعند هذه المقارنة نجد أن علماء التفسير وضعوا الآيات القرآنية – التي نحن بصدد مقارنتها – في تناقض واختلاف .

مختصر القول : أن تفسير العلماء للآيات " ٩-١٢ من سورة فصلت " ، " والآية ٢٩ من سورة البقرة" ، جعل هذه الآيات تقول بأن الماء ، والأشجار ، والدواب ، قد تم خلقهم جميعاً قبل بناء السماوات السبع... في حين أن الآيات من " ٢٧-٣٢ من سورة النازعات " ، تشير إلى أن الماء والأشجار قد تم خلقهم جميعاً بعد بناء السماوات السبع .

الملاحظة الرابعة : تذكر الآية "١٠ من سورة فصلت" أن الرواسي (الجبال) ،ظهرت في الأرض خلال مرحلة السماء الدخانية ، أي قبل بناء السبع سماوات وقبل ظهور الماء أيضاً . في حين أن الآية "٣٢ من سورة

النازعات " تذكر أن الجبال ظهرت بعد إتمام بناء السبع سماوات ، وبعد ظهور الماء .

وسوف نرى في فقرة قادمة ، أن هذا الاختلاف ، ليس فيه تناقض ، ولكن فيه أعجاز قرآني .

وقبل وضع تصورات أو خواطر لحل لهذه الملاحظات أو القضايا ، يجب أن نطرح تساؤلات هامة للغاية ، مع أنها قد تبدو بسيطة .

- ما مفهوم كلمة سماء ؟
- ما المقصود بالكلمات " بارك فيها ، قدر فيها ، أقواتها " ، ما في الأرض جميعاً ؟ !
- متى تجزأت الأرض إلى سبع أرضين ؟
- فهل تجزأت قبل أم بعد أم أثناء بناء السماوات السبع ؟
- متى خلقت الشمس ؟

وبنايات الكون من نجوم وشموس ومجرات ... أين عساها توجد ؟ هل توجد في السماء الأولى (الدنيا) فقط أم موزعة على السماوات السبع؟! أم موزعة في عدد منها دون عدد آخر ؟

مفهوم كلمـــة سماء

إن كلمـه سماء لغويا أو " قاموسياً " تعني باختصار . كل ما علاك فأظلك .. حتى أنك تقول على سقف البيت سماء .

وبالإضافة إلى هـذا المعنى اللغوي ، يمكنـا أن نستنبط مـن القـرآن مفهوم أعمق لمعنى كلمة سمـاء .

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ ﴾

" سورة النازعات – الآيتان ٢٧ ، ٢٨ "

قال المفسرون في تفسير الآية ٢٨ مـن سـورة النازعـات : أي رفـع جرمها وأعلى سقفها فوقكم فجعلها مستوية لا تفاوت فيهـا ، ولا شـقوق ، ولا فطور ، قال ابن كثير : أي جعلها عالية البناء ، بعيـدة الفنـاء ، مستوية الأرجاء ، مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء .

﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾

" سورة نوح – الآيتان ١٦ "

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ ﴾

" سورة الانشقاق – الآية ١ "

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

" سورة الرحمن – الآية ٣٣ "

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ ﴾

" سورة الجن – الآية ٨ "

﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ... ﴾

" سورة فصلت – الآية ١٢ "

﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ ﴾ " سورة النبأ – الآية ١٩ "

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ .. ﴾

" سورة فصلت – الآيتان ١١ ، ١٢ "

نستنبط من هذه الآيات التي تتكلم عن السماء .. أن السماء ليست تكويناً مصمتاً – مثل تكوين الأرض مثلاً – ولكنها تكوين أشبه بكرة (سطح فى الفراغ) كبيرة ، ومهولة .. بداخلها فراغ نسبى يحتوي على مكونات الكون من نجوم، وشموس ، وأجرام ... وطالما أن هناك سبع سماوات ، إذن يوجد سبع كرات ، وأعتقد أن السبع كرات هذه متداخلة – كرة داخل كرة– ومتدرجة من الأصغر " السماء الأولى " ، إلى الأكبر فأكبر حتى " السماء السابعة " ، وإن بين كل سماء وسماء ، حدوداً .

فالسماء بشكل عام عبارة عن كرة كبيرة (سطح فى الفراغ) يحتوى على بنايات الكون من نجوم ، وشموس ، وكواكب ، ومجرات ... وأن محيط كل سماء عبارة عن حدودها الوهمية ، لأنه بمثابة مجال أو مستوى عال من الطاقة ،وبالتالي بمثابة حاجز لا يستطيع أحد اختراقه إلا بسلطان ، وبإرادة ا لله وإذن منه .

ونلاحظ أنه في البدء كانت هناك سماء دخانية واحدة ،يمكننا أن نطلق عليها السماء الأم .. هذه السماء الأم تحولت بعد ذلك إلى سبع سماوات .

المقصود بالكلمات

(بارك فيها ... قدر فيها ... أقواتها ... ما في الأرض)

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ... ﴾ " سورة فصلت - الآية ١٠ "

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

سورة البقرة - الآية ٢٩ "

الآية ١٠ من سورة فصلت ، لم تقرر بشكل واضح أن المقصود بكلمة أقواتها ، هو أقوات البشر من أنهار وأشجار ودواب. ولذلك فإن الآية تحمل أكثر من تفسير ، حيث يمكننا القول بأن المقصود بكلمة أقواتها ، هو ما في باطن الأرض من معادن ، وعناصر هامة ، وماء محتبَس في باطنها ، وما يدفع بصحة هذا الافتراض ، أنه تم اكتشاف ذلك علمياً -كما ذكرنا من قبل- فقد تمكن العالم الأمريكي " وليم روبي *W.Ruby* " بحسابات جيوكيميائية معقدة ، أن يثبت أن جزءاً كبيراً من ماء البحار والمحيطات ، قد انبثق من باطن الأرض نفسها ، من الماء المحتبس بين الصخور في الطبقات العميقة من القشرة الأرضية ، وإن هذا الماء المحتبس ، قد تكوّن خلال عملية بلورة الصخور السيليسية في الأحقاب الأولى من نشأة الأرض ، وانبثق من باطن الأرض بكميات مهولة ، وقد طفح على السطح على مراحل أو دورات نتيجة لحركات عنيفة اعتورت القشرة الأرضية .

ونجد أن القرآن ذكر هذه الحقيقة العلمية في الآية " أخرج منها ماءها " إذن الآية " ١٠ من سورة فصلت " تشير من ضمن ما تشير إليه بالكلمات بارك فيها ، وقدر فيها أقواتها ، إلى بلورة الصخور السيليسية في الأحقاب الأولى من نشأة الأرض ، أي أنها تشير إلى مرحلة تكوين الماء في باطن الأرض ، وليس إلى مرحلة خروج الماء على سطح الأرض ، وبشكل عام يكون معنى الآية .. هو أن الله بارك في الأرض ، وقدر فيها أقواتها من معادن ، وعناصر ، وماء محتبس ...

وعلى نفس المنوال يمكننا تفسير الآية :

﴿ .. خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ...﴾

" سورة البقرة – الآية ٢٩ "

فنقول بأنها تشير إلى خلق ما في باطن الأرض من عناصر ، ومعادن وماء محتبس ، ولم تكن تشير إلى خلق الأنهار ، والأشجار ، والدواب ..."

وبناء على هذا التفسير تصبح الآية "١٠ من سورة فصلت " والآية " ٢٩ من سورة البقرة " تشيران إلى خلق جميع ما في باطن الأرض من عناصر ، ومعادن ، وبلورة الصخور السيليسية ، لتكوين ماء محتبس .. أي أنهما يشيران إلى المرحلة التي أصبحت فيها الأرض مهيئة فيزيقيا ، وكيميائيا لخروج الماء والمرعى ، ونشوء حياة في مرحلة لاحقة .. تلك المرحلة التي أتت بعد إتمام بناء السماوات السبع .. وهى المرحلة التي توضحها الآيات من " ٢٧-٣٢ من سوره النازعات " ..

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ﴾

فبعد بناء السماء ، والاستقرار النسبي للسماوات ، ومكوناتها – من نجوم ، وشموس ، وكواكب – بدأت العلاقة الحميمة بين الشمس والأرض ، لتأتي بثمارهما .. فخرج من باطن الأرض الماء المحتبس وانتشر فوقها ، فنشأت الحياة ، وانفتقت الأرض بالمرعى ، والأشجار ، والزروع .

اختلاف فيه إعجاز قرآني

ذكرنا من قبل أن الرواسي (الجبال) في الآية " ١٠ من سورة فصلت "، ظهرت قبل إتمام بناء السماوات السبع وقبل ظهور الماء ، بينما الآية " ٣٢ من سورة النازعات " تشير إلى ظهور الجبال بعد إتمام نباء السماوات السبع ، وبعد ظهور الماء .

في الحقيقة أن هذا الاختلاف ليس فيه تناقض ، ولكن فيه أعجاز قرآني ، لكي نكتشفه يجب أن نعرف - ولو باختصار - أنواع الصخور ، وأنواع الجبال ، وكيفية تكوينهما .

* أنواع بعض الصخور وكيفية تكوينها :

- صخور بركانية : تتكون بفعل المقذوفات البركانية التي تندفع من باطن الأرض .
- صخور رسوبية : تتكون من تجمع الجسيمات الدقيقة والمواد الرسوبية ، بواسطة المياه وهى تجرى بين الصخور والتربة في طريقها إلى البحر ، وتتكاثر هذه الرواسب في قعر البحر ، وعبر الأزمنة ، تتكون طبقه فوق طبقة حتى تتحول إلى صخور رسوبية .

ونستنتج من ذلك أن الصخور البركانية لا تعتمد في تكوينها على الماء إطلاقاً ، ولذا فهى تكونت قبل وجود الماء ، أي قبل بناء السماوات السبع ، وهذا لا يمنع من تكوين بعضها بعد ظهور الماء .. أما الصخور الرسوبية تعتمد أساساً على وجود الماء ، ولذا فهى لم تتكون إلا بعد ظهور الماء ، أي بعد بناء السماوات السبع .

* أنواع الجبال وكيفية تكوينها :

- جبال بركانية : تتكون بفعل المقذوفات البركانية .
- جبال مطوية : تنشأ نتيجة لتحرك القشرة الأرضية ، حيث إن هناك قوة هائلة تعمل داخل قشرة الأرض مما يدفع الصخور (الرسوبية - البركانية) ، لأن تصبح بشكل طيات ضخمة تكبر مع الزمن فتعرف باسم الجبال المطوية .
- جبال انكسارية : عبارة عن كتل كبيرة من الأرض ، دفعت بفعل الحركة لتستقر بين الشقوق أو الصدوع التي تحدث في قشرة الأرض .
- الجبال المقببة : تتكون نتيجة الضغط الموجود داخل الأرض ، الذي يدفع إلى السطح كتلاً كبيرة تعرف باسم الجبال ذات القباب أو الجبال المقببة.

ويمكن لسلسلة من الجبال أن تضم نوعين أو أكثر من أنواع الجبال السابقة .

نستنتج مما سبق أن جميع أنواع الجبال السابقة - باستثناء نسبى للجبال البركانية - يتحكم في تكوينها نوع أو طبيعة القشرة الأرضية ، فمثلاً إذا كانت القشرة الأرضية تحتوى على صخور رسوبية ، تكونت جبال مطوية تحتوى على صخور رسوبية أو جبال انكسارية تحتوي على صخور رسوبية أو جبال مقببة تحتوى على صخور رسوبية ، ونفس الشيء إذا كانت قشرة الأرض تحتوي على صخور بركانية ، أي أن الجبال بشكل عام أبناء بيئتها .

وبناء على ذلك ، فإن هناك جبالاً تكونت قبل وجود الصخور الرسوبية ، وبالتالي قبل ظهور الماء ، أي قبل مرحلة إتمام بناء السماوات السبع.

وهناك جبال تكونت من الصخور الرسوبية ، أي بعد ظهور الماء أو بعد إتمام بناء السماوات السبع .

وبشكل عام يمكننا أن نحكم على جميع الجبال التي تتكون من الصخور الرسوبية ، بأنها تكونت بعد ظهور الماء ، أي بعد إتمام بناء السماوات السبع، في حين لا يمكن أن نحكم على الجبال الخالية من الصخور الرسوبية، بأنها تكونت قبل ظهور الماء أو قبل بناء السماوات السبع ، وذلك لعدم اعتمادها على المياه إطلاقاً ، فمنها ما تم تكوينه قبل ظهور الماء، وبالتالي قبل بناء السماوات السبع ، ومنها ما تم تكوينه بعد ظهور الماء ، وبالتالي بعد بناء السماوات السبع .

ومن ثم نكتشف الأعجاز القرآني في مسألة الجبال ، حيث إن الآيات من " ٩-١٢ من سورة فصلت " ، تشير إلى الجبال التي ظهرت قبل بناء السماوات السبع ، أي قبل ظهور الماء وبالتحديد فهي تشير إلى الجبال البركانية التي اعتمدت في تكوينها على الصخور البركانية، بينما الآيات من " ٢٧-٣٢ من سورة النازعات " ، تشير إلى الجبال التي ظهرت بعد إتمام بناء السماوات السبع أي بعد ظهور الماء ، وبالتحديد فهي تشير إلى الجبال التي تكونت من الصخور الرسوبية .

متى تم خلق السبع أرضين ..

من | منطلق التسليم بحقيقة وجود أرضين سبع ، كما تشير الآية ١٢ من سورة الطلاق ....
﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾

وبالرغم من اختلاف المفسرين حول حقيقة وجود السبع أرضين من عدمه -كما وضحنا سابقاً- إلا أن القضية معروضة في القرآن بشكل يسمح للاجتهاد والبحث ، ومن ثم نحاول أن نبحث عن إجابة سديدة ، لسؤال في غاية الصعوبة ... متى تجزأت الأرض إلى سبع أرضين ؟ أو في أي مرحلة من مراحل الخلق الستة تم تكوين الأراضين السبع ؟

ومن خلال ما تم طرحه عن مفهوم السماء ، والتفسير الجديد للآيات من " ٩-١٢ من سورة فصلت " قد يمكننا التوصل إلى إجابة .

والآن نعرض تفسير الآيات من " ٩-١٢ من سورة فصلت " باجتهاد خاص نوضح فيه ثلاثة احتمالات للمرحلة الزمنية التي تم فيها خلق السبع سماوات .

قال تعالى :

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ

كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ " سورة فصلت الأيات من ٩ : ١٢ "

الإحتمـال الأول :

بعد أن خلق سبحانه النجوم والشموس ، تكونت الكواكب والأرضين السبع ، وتوزعت على سبع مجموعات شمسية ، وقد تم كل ذلك في المرحلتين –الأولى والثانية – من مراحل الخلق الستة التي حددها القرآن.، ثم جعل سبحانه في الأرضين " أو الأرض التي نعيش فيها " الرواسي (الجبال) ، وبارك فيها ، وقدر في باطنها أقواتها من معادن ، وعناصر ، ومواد أخرى ، وقدر في جوها أقواتها من الغازات .. وقد تم تقدير كل ذلك بالشكل الذي يجعل الأرض في مرحلة لاحقة مهيئة لنشوء حياة ، واستمرار حياة ، وقد تم ذلك في المرحلتين الثالثة والرابعة ، وبناء على هذا الاحتمال يكون الأمر الموجه للسماء وللأرض في الآية "١١" ، نتيجته أن تتجزأ أو تتشكل السماء الدخانية إلى سبع سماوات .. ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ .. ﴾ وأن تتوزع الأرضين السبع وبقية الكواكب بنجومها ، وشموسها ، وجميع بنايات الكون في السماوات السبع ﴿ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ... ﴾ أي نصيب كل سماء من البنايات الكونية والملائكة أيضاً.

وليس معنى ذلك أن كل مجموعة شمسية من المجموعات السبع ، احتلت سماء من السماوات السبع ، وإن كان هذا محتملاً ، إلا أنه من المحتمل أيضاً أن يكون نصيب إحدى السماوات أكثر من مجموعة شمسية ، وربما كان نصيب السماء الأولى (الدنيا) كل المجموعات الشمسية ، وتم

كل ذلك في المرحلتين الأخيرتين -الخامسة والسادسة- من مراحل الخلق .

الاحتمال الثاني :

الاحتمال الأول يوضح أنه في البدء قد تم خلق السبع أرضين ، أما في هذا الاحتمال (الثاني) نشير إلى أنه في البدء – وبعد خلق الشموس ، والنجوم – قد تم خلق أرض واحدة كبيرة ، نطلق عليها الأرض الأولى أو الأرض الأم ، هذه الأرض الأم كان حجمها عدة أضعاف حجمها الحالي ، وعن طريق اصطدامها – خلال نشأنها المبكرة- بكوكب حجمه يفوق حجمها بعدة مرات أو بأي شكل آخر ، تجزأت أو تشكلت الأرض الأم إلى سبع أرضين ، وتم ذلك في المرحلتين الأولى والثانية .

ثم جعل سبحانه في هذه الأرضين – وخصوصاً أرضنا- الجبال النارية وبارك فيها وقدر في باطنها أقواتها من معادن وعناصر ومواد أخرى، كما بارك وقدر في جوها وغلافها الغازات ، قد تم كل ذلك بالشكل الذي يجعل الأرضين أو أرضنا ، مهيئة في مرحلة قادمة لنشوء حياة ، واستمرارية حياة ، وتم كل ذلك في اليومين أو المرحلتين (الثالثة والرابعة)، ثم تلي ذلك ما حدث في الاحتمال الأول ، وهو أن الأمر الموجة للسماء وللأرض في الآية "١١" ، نتيجته أن تتجزأ أو تتشكل السماء الدخانية إلى سبع سماوات ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ .. ﴾ وأن تتوزع الأراضين السبع وبقيه الكواكب والنجوم والشموس وجميع بنايات الكون في السماوات السبع ﴿ .. وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا .. ﴾ .

الاحتمال الثالث :

في البدء -بعد خلق النجوم والشموس – قد تم خلق أرض واحدة كبيرة (الأرض الأم) في المرحلتين الأولى والثانية ، ثم جعل سبحانه في هذه

الأرض الأم الجبال النارية ، وبارك فيها وقدر في باطنها أقواتها من معادن وعناصر ومواد هامة ... وتم ذلك في المرحلتين الثالثة والرابعة ، ونلاحظ أنه حتى هاتين المرحلتين ، لم يتم تشكيل الأرض إلى سبعة أرضين .

وبناء على ذلك يكون الأمر الموجة للسماء وللأرض في الآية "١١ من سورة فصلت " نتيجته أن تشكلت السماء الدخانية إلى سبع سماوات ، والأرض الأم إلى سبعة ارضين ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ ﴾ وأن تتوزع الأرضين وبقية البنايات السماوية في السماوات السبع ...
﴿ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا .. ﴾ أي نصيبها من البنايات الكونية ، والملائكة أيضاً.بالشكل الذي تم توضيحه سابقاً .

ومن هذه الاحتمالات الثلاثة ، نأخذ الاحتمال الأول ، لأنه أظهرهم – وا لله أعلم – لنبحث فيه بدراسة تفصيلية ، المصاحبة الزمنية بين خلق السماوات والأرض ، وترتيب خلقهما .

والجدير بالذكر في هذا المقام ، هذا الحديث الذي يشير إلى حقيقة وجود السبع أرضين وإلى حقيقة وجود كائنات تماثلنا تماماً على هذه الأرضين . ." قد روى أبو الضحا – واسمه مسلم – عن ابن عباس أنه قال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ... ﴾ قال : سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم ، وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، وإبراهيم كإبراهيم ، وعيسى كعيسى . قال البيهقي : إسناد هذا عن ابن عباس صحيح ،وهو شاذ بمرّة لا أعلم لأبى الضحا عليه دليلاً، وا لله أعلم"[(١)]

وبصرف النظر عن صحة هذا الحديث من عدمه ، فانه يستحق التقدير والدراسة ، حيث أنه لا يتعارض مع القرآن ، فالقرآن لم يذكر بالإثبات أو النفى ، إمكانية وجود حياة على كواكب أخرى .

(١) أنظر تفسير القرطبي .

المصاحبة الزمنية وترتيب عملية خلق البنايات السماوية

توصلنا في فقرة سابقة -عندما تناولنا الآيات من " ٩-١٢ من سورة فصلت"- إلى فكرة المصاحبة الزمنية لخلق كل من الأرض والسماء الدخانية .. فبعد أن خلق ا لله الأرض ، وما فيها من أقوات كامنة استوى إلى السماء ، وهى دخان ليشكل منها سبعة سماوات .. إذن فالسماء الدخانية التي استوى إليها ا لله كانت موجودة قبل ذلك ، أي أنها خُلقت مع خلق الأرض .

ومن ثم فإن الأربعة أيام أو المراحل الأربعة التي تم فيها خلق الأرض ، قد تم فيها خلق السماء الدخانية أيضاً . وبشكل عام فإن المراحل الأربعة الأولى ، قد تم فيها خلق البنايات الكونية من نجوم ، وشموس ، وكواكب ، وسماء دخانية ..

ويمكننا توضيح فكرة المصاحبة الزمنية -لخلق ونمو كل من الأرض والسماوات ، والتداخل الزمني في تكوينهما- بالتصورات الآتية :

إذا فرضنا أنه يوجد عنصران رمزهما " أ ، ب " في حالة اتحاد ، فإذا فصلنا العنصر " أ " عن العنصر " ب " فإن العنصر " ب " انفصل عن العنصر " أ " في نفس اللحظة .

نفرض أن الكون كان في البدء يتكون من مادتين أساسيتين ، مادة سوف يتكون منها الشموس ، والنجوم ، والكواكب ، والأرض ، ونرمز لها بالرمز " أ " ، والمادة الثانية سوف يتكون منها السماء الدخانية ، ونرمز لها بالرمز " ب " .

في البدء كانت هاتان المادتان " أ ، ب " ، في حالة اتحاد ، ثم انفصلت المادة " أ " عن المادة " ب " ، ثم تطورت المادة " أ " ، وتكون منها النجوم والشموس ، ثم تكونت الكواكب ، والأرضين السبع . ، ونرمز تطور المادة " أ " حتى تحولت إلى الأرض بالرمز " أَ " ، وقد تم ذلك في المرحلتين الأولى والثانية من مراحل الخلق الستة .

ثم تطورت الأرض " أَ " وتم تقدير أقواتها من معادن وعناصر ومواد أخرى (أقوات كامنة فيها) .. ونرمز للأرض بعد تطورها وتقدير أقواتها بالرمز " أً " وقد تم ذلك في المرحلتين الثالثة والرابعة ، ثم تم توزيع البنايات الكونية من نجوم ، وشموس ، وكواكب ، والسبع أرضين في السماوات السبع ، ونرمز لعملية التوزيع هذه – وخصوصاً توزيع الأرضين– بالرمز " أْ " وقد تم ذلك في آخر مرحلتين من مراحل الخلق الستة .

ملخص ما تم عرضه بخصوص الأرض :

" أ " المادة التي سوف يتكون منها الأرض ← (تطورت إلى – في المرحلتين ١، ٢) " أَ " الأرض

" أَ " الأرض ← (تطورت إلى – في المرحلتين ٣، ٤) " أً " الأرض بعد تقدير أقواتها في باطنها من معادن وعناصر هامة .

" أً " ← (تطورت إلى – في المرحلتين ٥، ٦) " أْ " الأرض عند توزيعها في السماوات .

ويجب علينا ملاحظة أن " أ " ← (تطورت إلى) " أً " في أربعة مراحل ،

وأن " أ " ← (تطورت إلى) " أْ " في ستة مراحل .

أما بالنسبة لعملية تطور خلق السماوات .. فقد رمزنا من قبل للمادة التي سوف يتكون منها السماء الدخانية بالرمز " ب " .

تطورت المادة " ب " وتكونت منها السماء الدخانية ، والتي نرمز لها بالرمز " بَ " وقد تم ذلك في المراحل الأربعة الأولى من مراحل الخلق الستة

ثم تطورت وتشكلت السماء الدخانية " بَ " إلى سبع سماوات ، نرمز لهن بالرمز " بً " وقد تم ذلك في المرحلتين الأخيرتين من مراحل الخلق الستة .

أي أن :

" ب " المادة التي تكونت منها السماء ← (تطورت إلى — فى المراحل الأربعة الأولى) " بَ " السماء الدخانية .

" بَ " ← (تشكلت إلى — فى المرحلتين ٦،٥) " بًّ " السماوات السبع .

وعلينا ملاحظة أن ب ← (تطورت إلى) " بًّ " في ستة مراحل .

ومن العرض السابق نستنتج المصاحبة الزمنية بين السماء الدخانية والأرض ، حيث إن المراحل الأربعة الأولى التي تم فيها تكوين الأرض وتقدير أقواتها ، تم فيها أيضاً تكوين السماء الدخانية ، ويمكن وضع هذه المصاحبة الزمنية على الصورة .

[" أ ، ب " ← (مصاحبة زمنية — فى المراحل الأربعة الاولى) أً ، بَ]

ونستنتج كذلك أن المرحلتين الأخيرتين من مراحل خلق الكون الستة، تم فيها تشكيل السماء الدخانية إلى سبع سماوات ، وتم فيها أيضاً توزيع السبعة أرضين – أو المجموعات الشمسية السبعة ، وبقية بنايات الكون من نجوم وشموس ، وكواكب – في السماوات السبع

ويمكن وضع هذه المصاحبة على الصورة :

[" أً ، بَ " ← مصاحبة زمنية / في المرحلتين الأخيرتين ← أْ ، بًّ]

والمصاحبة الزمنية لنمو الكون بشكل عام يمكن وضعها على الصورة:

[" أ ، ب " ← مصاحبة زمنية / في ستة مراحل ← أْ ، بًّ]

ويجب أن نضع في الاعتبار ، أن البنايات الكونية - من نجوم وشموس وكواكب وسماء دخانية - تم تكوينها في المراحل الأربعة الأولى لعملية الخلق، وأن النجوم والشموس كانت تسبق خلق الأرض ، حيث يمكننا القول بأن النجوم والشموس تكونت في المرحلة الأول من مرحلتى خلق الأرض التى تشير إليهما الآية " ٩من سورة فصلت " ، بينما الأرض والكواكب تكونت في المرحلة الثانية التى تشير إليها نفس الآية مع الأخذ فى الاعتبار بأن بداية تكوينها يحسب منذ بداية المرحلة الأولى .

وبشكل عام فإن معادلة تكوين الأرض ، وجميع بنايات الكون .. قد بدأت منذ لحظة الصفر .

إن معجزات الآيات من " ٩-١٢ من سورة فصلت " لم تقف عند هذا الحد - الذي اجتهدنا في توضيحه سابقاً -ولكنها تتعدى ذلك بمعجزة أخرى جديرة بالبحث ، والدراسة أيضاً .

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

" سورة فصلت - الآيات ٩ : ١٢ "

رأى بعض المستشرفين أن عدد أيام الخلق المذكورة في هذه الآيات ، ثمانية أيام (يومي خلق الأرض ، أربعة أيام تقدير الأقوات في الأرض ، ويومي تشكيل السماوات السبع)

وبناء على ذلك رأوا أن هذه الآيات تتناقض مع الآية " ٥٤ من سورة الأعراف " ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ..﴾

ولكن هذا الاختلاف الظاهري قام المفسرون بتوضيحه ، وقالوا : " بأن الله فرغ من خلق الأرض ، وجميع منافعها ، وأسبابها في أربعة أيام ، منها اليومان اللذان خلق الله فيهما الأرض . أي أن الآية " ١٠ من سورة فصلت " ضمت يومي خلق الأرض إلى يومي تقدير أقواتها . وسوف نوضح في مقام لاحق ، أن في هذا لغزاً عظيماً وإعجازاً قرآنياً .

وحاول " بوكاى " أيضاً ، الرد على مزاعم المستشرقين ، واعتمد على فكرة أن كلمة " ثم " تشير إلى وضع عنصر بجانب آخر ، ولا تفيد ترتيب عملية الخلق فقال :" وأيا كان الأمر فتستطيع فترات خلق السماء أن تكون مصاحبة تماماً لفترتى خلق الأرض " ونلاحظ أن بوكاي ضم يومي خلق السماوات في الآية " ١٢ من سورة فصلت " إلى يومي خلق الأرض في الآية " ٩ من سورة فصلت " ، ليكون أيام الخلق ستة أيام .

ولكنى أرى أن منهج بوكاى هذا – الذى يقول بأن " ثم" فى الآيات من ٩ : ١٢ من سورة فصلت قد تشير إلى التوالي أو إلى وضع عنصر بجانب آخر (أى أن " ثم " لا تشير إلى الترتيب) – يفيد فقط في قضية السماوات والأرض ، حين يسأل عن أيهما خلق أولاً – مثلماً وضحناً في فقرة سابقة– أما في قضية عدد أيام أو مراحل الخلق فالأمر يختلف .. حيث يجب علينا .. أولاً أن نفرق بين السماء الدخانية ، والسماوات السبع التي تشكلت من السماء الدخانية ، وأن المصاحبة الزمنية التي تمت في بدء الخلق .. تمت بين الأرض والسماء الدخانية ، وليس بين الأرض والسماوات السبع ، ولا يعنى ذلك أن المصاحبة الزمنية لم تكن إلا بين الأرض والسماء الدخانية فقط، لأن المصاحبة الزمنية كانت دائمة في جميع مراحل خلق الكون ، ولكن كل مرحلة من مراحل الخلق ، كان لها مصاحبة زمنية بين موجوداتها، وبناء على ذلك فقد حدث مصاحبة زمنية بين تكوين الأرض ، وتكوين السماء الدخانية ، وحدث أيضا مصاحبة زمنية بين تشكيل السماء إلى السماوات السبع ، وتوزيع الأرضين ، والكواكب ، والنجوم في هذه السماوات كما وضحنا ذلك سابقاً .

والسؤال | الذي يطرح نفسه الآن .. لماذا ضمت الآيات من سورة فصلت يومي خلق الأرض إلى يومي تقدير أقواتها ، ولم تضم يومي خلق تشكيل السماوات .. إلى الأيام الأربعة الخاصة لخلق الأرض ؟

أي لماذا لم تكن الآية " ١٢ من سورة فصلت " على الصورة (فقضاهن سبع سماوات في ستة أيام ...) بدلاً من صورتها الحقيقية ....

﴿ .. فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ .. ﴾

في بداية طرح السؤال كنت أعتقد ، أن ضم يومي الأرض إلى يومي تقدير أقواتها ، قد تم على أساس أن الأيام الأربعة تخص الأرض فقط ، وأن عدم ضم يومي تشكيل السماوات السبع إلى الأيام الأربعة الخاصة لخلق الأرض ، لأنهما يخصان السماوات فقط ، وبالرغم من أن هذا الاعتقاد قد لا يعتريه الخطأ ، حيث يصح القول به ، وخصوصاً إذا تكلمنا عن خلق السماوات والأرض بدون تفصيل أو بدون النظر إلى المصاحبة الزمنية .

ولكن بعد هذه الدراسة التي تناولت بالتفصيل المصاحبة الزمنية في الأيام الأربعة الأولى – بين الأرض والسماء الدخانية – وأيضاً المصاحبة الزمنية في اليومين الخامس والسادس – بين تشكيل السماوات السبع ، وتوزيع النجوم ، والشموس ، والكواكب ، والأرضين في السماوات – .

فبعد هذه الدراسة ظهرت رؤية جديدة مؤداها .. أن السبب في ضم الأيام الأربعة الأولى ،هو أنها أيام خاصة بعملية الإيجاد أو التخليق ، أي إيجاد وخلق السماء الدخانية وبنايات الكون – نجوم وشموس ، وكواكب

وأرضين – من المادة الأولى أو السديم الذي أوجده الله من العدم المحض .

بينما لم يضم اليومين الأخيرين – الخامس والسادس– إلى الأيام الأربعة الأولى ، لأن اليومين الأخيرين خاصان بعملية تشكيل السماوات السبع ، وتوزيع البنايات الكونية من نجوم ، وكواكب ، وأرضين في هذه السماوات .

أي أن هذين اليومين مهمتهما التشكيل والتوزيع ، وليس الإيجاد أو التخليق .. وقل إن شئت أن مهمتهما وضع اللمسات الأخيرة في اللوحة الكونية . و الله أعلم .

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ⁽٩⁾﴾

" سورة الحجر – الآية ٩ "

(كل شيء كان لا شيء .. لا حركة لا سكون .. فالكون كان عدما ، والعدم بلا زمن .. لأن الزمن ابن الحركة .. والحركة ابنة الوجود .. والوجود لابد له من واجد .. بالغ أمره أن جعل لكل شيء قدراً ، وإذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .)

القــــرآن يجــدد نفســـه

* اجتهاد في كيفية نشــأة الكــون .
* رؤية حول آيات المشــرق والمغــرب .
* القرآن يجدد نفســه تلقائياً عبر العصــور .

اجتهاد في كيفية نشأة الكون

منذ القدم ، وقضية نشأة الكون تشغل الإنسان ، على المستوى الأسطوري والفلسفي والديني والعلمي ، وقد كانت محاولات رجال الدين الإسلامي في كشف لغز نشأة الكون ، أمثال : " على بن أبى طالب " كرم ا لله وجه " ، وابن عباس " رضى ا لله عنهما " والرازى ... وغيرهم دافعاً ، لأن أحاول أن أقدم اجتهاداً في كيفية نشأة الكون ، مستعيناً بالقرآن ، والأحاديث القدسية، والنبوية ، وخواطر الصحابة ، ورجال الدين ، ونظريات العلم الحديث .. بالإضافة إلى خواطري.. علّي أصنع نسيجاً مقبولاً .

وهذا الاجتهاد يُعد إجابة لتساؤلات " كارل ساجان " عالم الفضاء الأمريكي المشهور ، فعلى رغم ماديته ، وإيمانه بالصدفة والطبيعة .. في إيجاد الكون .. فهو يقول في كتابه " الكون " : " وإذا كانت الصورة العامة للعالم المتمدد ، والانفجار الكبير صحيحة ، فيجب أن نواجه مزيداً من تساؤلات أصعب .. فما الظروف التي كانت سائدة لدى حدوث الانفجار الكبير ؟ وماذا حدث قبل ذلك ؟ هل كان يوجد كون صغير خال من كل مادة ، ثم خلقت المادة فجأة من لاشيء ؟ وكيف حدث ذلك ؟! "

الخالق ... الباري ... المصور ... البديع

كان ا لله ولم يكن شيء قبله ﴿ سُبْحَانَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾

" سورة الزمر – الآية ٤ "

أبتدع الخلق ، وأوجده من العدم المحض .. على غير مثال سابق امتثله ،

ولا تجربة استفادها من حوادث الدهور ، ولا مقدار سابق احتذى عليه ، من خالق معهود كان قبله ﴿.. لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ..﴾

" سورة الأنبياء – الآية ٢٢ "

ولا شريك أعانه على عملية الخلق ....

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ ،

" سورة المؤمنون – الآية ٩١ "

وحول سبحانه الأشياء من العدم إلى الوجود في أوقاتها ......

﴿.. إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

" سورة يس – الآية ٨٢ "

عالماً بها قبل ابتدائها ، محيطاً بحدودها وانتهائها .. عارفاً بقرائنها وجوانبها فهو (على كل شيء قدير) ، وكتب في اللوح المحفوظ ما هو كائن إلى يوم القيامة ﴿.. عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾

" سورة سبأ – الآية ٣ "

في البدء أوجد الله مادة الكون من العدم المحض ، وجعلها منتشرة، ومبعثرة في فراغ مفتوح ، وكبير ، ومظلم حالك . ومع إيجاد مادة الكون وجد أول نوع من الزمن ، وكان يختلف عن الزمن الذي نعرفه اليوم، سلط الله سبحانه على مادة الكون ريحاً شديدة قلبتها ، ومخضتها، كما يمخض الوعاء بما فيه من اللبن ليستخرج زبدة ، ونتيجة لتمخيض مادة الكون . انشقت مواد تميزت بخصائص جديدة مثل : ذرات الهيدروجين

التي تجمعت من هنا وهناك ، وكونت كرات غازية مهولة الحجم ، اشتعلت في داخلها – ولأول مرة – النار النووية الكامنة في المادة ، وولد أول جيل من النجوم غامراً الكون بالضوء ، وفى هذه النجوم أنشأت كيمياء الدمج النووي عناصر ثقيلة ، من رماد احتراق الهيدروجين ، وهى مواد البناء الذرى اللاحق للكواكب ، وأشكال الحياة .

سرعان ما استنفذت النجوم مخزوناتها من الوقود النووي ، وعادت السماء –وبالأحرى الجو المفتوح الكبير– إلى الظلام الحالك ، ثم تعرضت هذه النجوم لانفجارات هائلة ، أغلب موادها الغاز الرقيق الذي كانت تكثفت في الأصل منه ، ثم تكثفت مرة أخرى قطرات جديدة مؤلفة من عناصر كثيرة، وبدأت تولد أجيال تالية من النجوم ، في نفس الوقت تكونت قطرات مطر هيدروجينية ذات أحجام أصغر بكثير من أن توقد ناراً نووية، بالإضافة إلى تجميع ذرات رماد احتراق الهيدروجين ، وكونت فيما بعد الكواكب .

كان ناتج هذه التفاعلات أن تكونت سماء دخانية كبيرة ، وتكونت أيضاً النجوم ، والشموس ، والكواكب ، والأرض أو الأرضين .. وقد تمت هذه التفاعلات على مرحلتين في مصاحبة زمنية ، بحيث لا نستطيع أن نقول أيهما بدأ تكوينه أولاً السماء الدخانية أم الكواكب .

كانت أحجام الكواكب في ذاك الوقت أكبر بكثير مما هى عليه الآن ، وكانت تدور حول شموس متعددة ، وبشكل غير منتظم وعشوائي ، بسبب حاله عدم الاستقرار ، مما أدى إلى تصادمها ببعضها البعض ، وبالتالي انقسامها أو تفتت أجزاء منها .. بعض هذه الأجزاء المفتتة اتحدت ببعضها لتكون الأقمار فيما بعد وبعضها الآخر هى تلك المخلفات الكونية التى

تدور حول بعض الكواكب .

في ذاك الوقت كانت الكواكب ، والأرضين تتجاذبها الشموس فيما بينها بشكل عشوائي ، كل شمس حسب قوة جاذبيتها وقرب الكواكب منها، ثم شيئاً فشيئاً استقرت الأمور ، واستطاعت سبعة شموس أن تسيطر على الكواكب ، وتجعلها تدور في أفلاكها لتصبح السماء الدخانية بها سبعة مجموعات شمسية .. وهذا لا يعنى أن عدد المجموعات الشمسية في الكون سبع فقط ، فمن المحتمل أن يكون عددها أكثر من ذلك ، ولكن المقصود بالمجموعات الشمسية السبعة : هى المجموعات التي تدور في أفلاكها أرض تشابه أرضنا والتي يحتمل أن يكون فيها حياة ....

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ.. ﴾ "سورة الطلاق-الآية ١٢"

وتم كل ذلك في المرحلتين – الثالثة والرابعة– ، وفى هاتين المرحلتين أيضا ، بارك الله الأرض ، وقدر في باطنها ، أقواتها من معادن ، وعناصر هامة ، وماء محتبس ...

بعد هاتين المرحلتين – الثالثة والرابعة – بدأت السماء الدخانية ذات المحيط أو المستوى الواحد الكبير ، تتطور وتنمو إلى سبع سماوات أو كرات أو-مستويات بشكل يشبه إلى حد كبير مستويات الطاقة التي يتحرك خلالها الإلكترون في الذرة ، وأصبح لكل سماء من السماوات السبع أو لكل مستوى من المستويات السبع،قوة أو طاقة خاصة به تزداد هذه الطاقة تصاعديا بدءا من السماء الأولى حتى السماء السابعة .

ولنا أن نتخيل أن المجموعات الشمسية ، وجميع بنايات الكون ، تشبه الإلكترونات ، وأن السماوات السبع تشبه مستويات الطاقة التي تحتلها إلكترونات الذرة،كل حسب طاقته، وبالمقابلة فإن كل مجموعة شمسية كانت

تحتل أو تستقر في المستوى الذي يناسبها تماما مثلما تفعل الإلكترونات .

وهذا لا يعني أن كل مجموعة شمسية من المجموعات السبع ، قد احتلت سماء من السماوات السبع - وان كان ذلك محتملا - ولكن يوجد احتمالات أخرى ، منها أن تكون مجموعتان شمسيتان أو أكثر قد احتلت إحدى السماوات أو أن جميع المجموعات الشمسية السبع قد احتلت السماء الأولى - الدنيا - فقط .
ولكن من المؤكد - على أي حال - أن مجموعتنا الشمسية احتلت السماء الأولى .

على أي حال فإن جميع هذه الاحتمالات مقبولة ولا تعارض بينها وبين الآية " ١٢ سورة فصلت " :

﴿ .. وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا .. ﴾

فبالإضافة إلى أن هذه الآية تشير إلى أن كل سماء أخذت نصيبها من الملائكة -كما يقول المفسرين- فلا مانع من أنها تشير أيضاً إلى نصيب كل سماء من البنايات الكونية بإحدى الاحتمالات السابقة .

وتمت هذه العملية - تشكيل السماوات السبع وتوزيع البنايات الكونية فيها - في المرحلتين الأخيرتين من مراحل الخلق الستة .

على مر الأحقاب ، حدث في الأرض عدة سلاسل بركانية ، وتحركات عنيفة ، وحركات التوائية ، وانكسارية .. أدت إلى تكوين الجبال المختلفة -عدا الجبال الرسوبية - ، التي اعتمدت في تكوينها على الصخور النارية الصلبة التي تتميز بخلوها من الحفريات ، وهذه التحركات .. أدت أيضاً إلى تكوين تمزقات ، وتشققات في الأجزاء الضعيفة من سطح الكرة

الأرضية . وشيئاً فشيئاً انبثق الماء الذي قد تكون وانحبس داخل الصخور ، في الطبقات العميقة من القشرة الأرضية ، أثناء عملية بلورة الصخور السيليسية انبثق الماء من باطن الأرض ، بعد أن أصبحت الأرض مهيأة تماماً لذلك ، وراح الماء يملأ التمزقات والتشققات ، وبذلك تكونت البحار والمحيطات الأولى التي تميزت بماء ساخن ، وقوام معقد أكثر تماسكاً .

﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ ﴾

كان جو الأرض حين ذاك ، يعيش في حالة من الدخانية ، والرعد والبرق المتواصل والمتلاحق ، ودرجة حرارة عالية . وكان طبيعياً أن تتبخر مياه البحار والمحيطات ، لتتكاثف في طبقات الجو العليا الباردة ، ثم تتساقط مرة أخرى على هيئة أمطار غزيرة وثقيلة ، وهكذا حتى تكونت الأودية والأنهار .....

وبمضي الزمن ، هدأت ثورة الأرض ، واستقر جوها ، ومع تكرار عملية البخر والتكاثف ، وسقوط الأمطار ، بالإضافة إلى ترسب المواد الثقيلة في قاع المحيطات والبحار والأنهار ، تخلص الماء من الشوائب العالقة به ، وصار الماء ذا قوام رقيق ، وأفسح ا لله سبحانه بين الأرض وجوها بهواء نقي .. لتعلن الأرض بأنها أصبحت مهيأة تماماً ، وصالحة .. ليس فقط لنشوء حياة ، ولكن لاستمرارية الحياة .

ومن الماء الجاري تكونت الصخور الرسوبية .. من تراكم الرواسب ، وفتات الصخور الأخرى ، وزمن تلو الآخر ، تكونت الجبال الرسوبية.

التي تميزت باحتوائها على الحفريات ..

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا (٢٨)
وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا (٢٩) وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ
(٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا (٣١) وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا (٣٢) ﴾

" سورة النازعات - الآيات ٢٧ : ٣٢ "

رؤية حول آيات المشرق والمغرب

﴿ ... رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ..... ﴾ " سورة الشعراء – الآية ٢٨ "

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾ " سورة الرحمن – الآية ١٧ "

﴿ ... بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ .. ﴾ " سورة المعارج – الآية ٤٠ "

لم يختلف العلماء في تفسير الآية (رب المشرق والمغرب) فالكل أجمع أن المقصود بالمشرق هو جهة شروق الشمس والمقصود بالمغرب هو جهة غروب الشمس ، وبالرغم من أن الشعراوي لم يختلف تفسيره عن هذا التفسير ، إلا أنه أضاف إليه بعدا علمياً ولغوياً فقال :(ا لله سبحانه وتعالى قرن كلمة المشرق بالمغرب لأنه لا يوجد مشرق بدون مغرب .. كروية الأرض تحتم هذا .. ففي الوقت الذي تغرب فيه الشمس على جهة .. في نفس الوقت .. وفى نفس اللحظة تشرق على جهة أخرى .. إذن قول ا لله سبحانه وتعالى : " رب المشرق والمغرب " .. ولم يقل " رب المشرق ورب المغرب " .. معناها أن الشروق والغروب يتم في وقت واحد ..).

ولكن يوجد ملاحظة على رؤية الشعراوي فهو يقول بأن (اقتران المشرق بالمغرب معناه أن الشروق والغروب يتم في وقت واحد) ، فمعنى ذلك أن الآية (رب المشرقين ورب المغربين) لم يتم فيها اقتران المغربين بالمشرقين ، بسبب عدم تواجد مشرقين ومغربين في وقت واحد .

فإذا كان ذلك كذلك ، كان يجب أن تكون الآية (رب المشارق والمغارب) على الصورة (رب المشارق ورب المغارب) أي كان يجب عدم

اقتران المغارب بالمشارق بسبب عدم وجود عدة مشارق ، وعدة مغارب في وقت واحد بالنسبة للآرض ، وبناء على ذلك لنا رؤية أخرى سوف يتم عرضها بعد تناول آراء العلماء في الآيتين (رب المشرقين ورب المغربين) ، (رب المشارق والمغارب) .

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾ " سورة الرحمن – الآية ١٧ "

أختلف العلماء في تفسير هذه الآية فنجد أن الطبري قال : (رب المشرقين) مشرق الشمس في الشتاء ، ومشرقها في الصيف (ورب المغربين) مغرب الشمس في الشتاء ، ومغربها في الصيف .. ونجد أن " محمد على الصابوني " يذكر في كتابه " صفوه التفاسير " : (أي هو جل وعلا رب مشرق الشمس والقمر ، ورب مغربهما).. أما الشيخ " محمد متولي الشعراوي " فقد قال أن آية (رب المشرقين ورب المغربين) " تعرض لنا بأن نصف الكرة الأرضية يكون ظلاما ليس له مشرق ولا مغرب .." والنصف الآخر يكون مضيئاً له مشرق ومغرب .. وعندما ينعكس الوضع – أي وضع الكرة الأرضية – يصبح هذا النصف له مشرق ومغرب .. وهذا النصف لا مشرق له ولا مغرب .. وهكذا في عموم الكرة الأرضية .. هناك مشرقان ومغربان"

أما آية ﴿ .. بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ .. ﴾ " سورة المعارج – الآية ٤٠ "

فسرها العلماء بأن كل بلد من بلاد الكرة الأرضية له مشرق وله مغرب ، وأضاف الشعراوي وقال :"بأن دوران الأرض حول الشمس، تجعل لكل يوم مشرقاً ومغرباً بزاوية مختلفة – بل بتوقيت مختلف عن اليوم الآخر." (أى أن المشارق والمغارب لا تحدث فى وقت واحد على الأرض) .

تلك هي خواطر العلماء حول تفسير الآيات الثلاثة ، وحان المقام الآن لعرض خواطري حول نفس الآيات..

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾ " سورة الرحمن – الآية ١٧ "

قد أخبرنا الرسول ﷺ في حديثه الشريف " . " بادروا بالأعمال ستة : الدجال ، والدخان ، ودابة الأرض ، وطلوع الشمس من مغربها ، وأمر العامة ، وخويصة أحدكم ."[١]

صدق رسول الله ﷺ

فالحديث يخبرنا أن من علامات يوم القيامة ، شروق الشمس من مغربها ، وبالتالي غروبها من مشرقها ، أي أن الشمس سوف تعكس مكان شروقها ومكان غروبها ، وبناء على ذلك ، فإن الأرض يقع عليها مشرقان ومغربان ، وعلينا أن نلاحظ أن الآية ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾

هى الآية الوحيدة من الآيات الثلاثة التي لم يقرن الله بها المغربين بالمشرقين ، أي لم تكن الآية على الصورة (رب المشرقين والمغربين) ، لأن المشرقين والمغربين لا يحدثان مجتمعين معاً بالنسبة لوضع الأرض الحالي ، فالآية تشير إلى المشرق الحالي ، والمشرق الجديد أو المعكوس الذي سيقع قبل القيامة ، وأيضاً تشير إلى المغرب الحالي والمغرب الجديد ، الذي سيقع قبل القيامة .

وهذا يوضح لنا أن آية ﴿ .. رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ .. ﴾ اقترنت فيها كلمة المغرب بالمشرق لأن الآية تشير إلى الحالة الراهنة ، حيث إن الأرض – في وضعها الحالي وحتى قبل أن تعكس الشمس مشرقها ومغربها – لها

---

(١) مختصر صحيح مسلم .

مشرق واحد ، ومغرب واحد .وكذلك الآية ..

﴿ .. بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ .. ﴾ فهي تشير إلى مشرق ومغرب الشمس بالنسبة للكواكب أو بالأحرى مشرق ومغرب ، شمس كل أرض من السبعة أرضين ، فكل كوكب أو كل أرض من السبعة أرضين لها مشرق واحد ومغرب واحد .. أذن فهناك بشكل عام مشارق ومغارب تقع على الكواكب أو على السبعة أرضين ، ولذلك لم تكن الآية على الصورة (رب المشارق ورب المغارب) لأن الآية تشير إلى حالة الشروق والغروب للكون أجمع في وضعه الراهن . وهذا التفسير يدفعنا إلى القول بحقيقة وجود كائنات حية على الأرضين السبع .. فما فائدة ذكر مشارق ومغارب الشمس بالنسبة للكواكب أو الأرضين السبع إن لم يكن عليها كائنات حية .

فإذا كان الشعراوي قد فسر هذه الآيات تفسيراً يؤكد فيه تناول القرآن لفكرة كروية الأرض ودورانها ، فإن التفسير الذي عرضته يؤيد تناول القرآن لفكرة تعدد الأجسام السماوية من كواكب وأرضين وشموس، بالإضافة إلى قدرة ا لله العظيمة ، في تغيير نظام كونه عندما يجعل الشمس تشرق من مغربها ، وتغرب من مشرقها .

فسبحان ا لله القادر العليم .. أليس بالغ أمره أن جعل لكل شئ قدراً ، وإذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

القرآن يجدد نفسه تلقائياً عبر العصور

العقل البشرى محدود ، والنفس البشرية عاجزة ، ومهما بلغ الإنسان من العلم ، فعلمه قليل ، ومحدود أمام علم ا لله الواسع الشامل .. ولذا نحن البشر لا نستطيع إدراك كل الأشياء ، فهل في طاقة المحدود أن يدرك اللانهائى إدراكاً كلياً.

إن قيمة الإيمان تتجلى ليس بالتسليم للأشياء التي يمكن إدراكها ولكن بالتسليم الكامل للأشياء التي لا يمكن إدراكها ، طالما أن الأشياء التي يمكن إدراكها يؤيدها العقل والعلم ، وتميل إليها الفطرة ، وتطمئن إليها النفس ، فما يمكن إدراكه قنطرة إلى مالا يمكن إدراكه .

من الحكمة البالغة للقرآن .. أنه تكلم عن العديد من القضايا ، بمختلف الإشارات ، ولم يصرح بها .. ليقودنا دائماً عبر العصور إلى معجزات ، نتبينها عندما يزيح علم كل عصر الستار عن تلك الإشارات ، التي تحجب خلفها حقائق جد عظيمة ، وكأن القرآن يجدد نفسه بنفسه تلقائياً ، ليلائم المعطيات العلمية لكل عصر . ومن ثم لم يحكم القرآن على نفسه ، أن يوضع مع كتب التاريخ فوق أرفف المكتبات .

فمن الإعجاز القرآني .. استمراريته وحيويته الدائمة ، وعطاؤه المتواصل عبر العصور ، وذلك لأنه لم يصارحنا بكل القضايا جملة واحدة .. فهو يحدثنا تصريحاً عن القضاياً التي ندركها ، والتي على قدر تصوراتنا العقلية، ويحدثنا تلميحا عن القضايا التي لا نستطيع إدراكها ، في ظل معطياتنا العلمية ، حتى إذا تطور العلم ، واتسعت معطياته ونما إدراكنا ...

اكتشفنا أن التلميح تصريح ، والتصريح إعجاز ، والإعجاز لغز ، واللغز سر ، والسر نور ، والنور هداية .. وطريق إلى ا لله .

من أهم المراجــــع

* القرآن الكريـــم
* الكتب المقدسة (العهد القديم والعهد الجديد)
* مختصر صحيح مسلم
* تفسير ابن كثـير
* تفسير القرطبـــي
* تفسير الطبـــري
* تفسير " فى ظلال القرآن " سيــد قطــب
* صفوة التفاســـير محمد على الصابوني
* قصـــص الأنبيـــاء ابن كثـــير
* قصـــص الأنبيـــاء أحمد بهجت
* دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة موريس بوكاي
* عقيدة المسلمين والعقائد الباطلة د. محمد عبد المنعم القيعي
* حقوق الإنسان بين الإسلام والمذاهب المعاصرة عبد الله بن علي المحمـود
* الإسلام فى عصر العلم محمد أحمد الغمراوي
* الإسلام فى القرن ٢١ وحيد الدين خان
* حقيقة ظهور الدين عثمـــان القطعــــاني
* تفصيل آيات القرآن الكريم جول لابوم - ترجمة محمد فؤاد عبد الباقى

* معجزة القرآن (١) محمد متولى الشعراوي
* نهج البلاغة " للإمام على بن أبى طالب " . الشيخ محمد عبده
* الرب وا لله وجوجو (الأديان فى أفريقيا المعاصرة)
القص جاك مندلسون - ترجمة إبراهيم أسعد
* خلاصة تاريخ العـرب سـديـو
* أسس الفلسفة د. توفيـق الطـويل
* الكـــون كارل ساجان - ترجمة نافع أيوب لبّس
* حياة الحقائـق جوستاف لوبون
* قصة الحياة البيردو كروك
* مجلة عالم الفكـر
* مجلة العلـــم

....

* *Bertrand Russell . Modern Science and Philosophy*
* *Bertrand Russell . The will to douet*
* *Eddingtion . Philosophy physical Science .*

محتويات الكتاب

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

" سورة يونس - الآية ٣٥ "

تـــم بحمـــد اللــــه

هل يسقط الدين ويحيا العلم ؟!

• المؤلـــف :
• تصميم الغلاف : } عبد الجواد محمد عبد الجواد
• الإخراج الفني : محمد سعيد
 ت : ٤٤٤٣٧٠٠

خالص الشكر للأستاذ / حامد صالح لمشاركته فى نشر هذا الكتاب .

الطبعة الأولى

صفر ١٤١٩ هـ - يونيه ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ٤٣٦٤ / ٩٨
الترقيم الدولى : .I.S.B.N
977-19-5721-X

القاهرة للطباعة بالكمبيوتر

توزيع أخبـار اليـــوم